باب وقايع العرب المشهورة
حرب البرَّق

إذ قد فرغنا من الكلام على دول ملوك العرب وشعرائهم المشاهير شرعنا الآن فى ذكر ما وقع فى أيامهم من الحروب الشهيرة فمن ذلك حرب البرَّاق بن روحان التميمى وما كان من حديثه وأخباره مع ليلى ابنة لكيز بن مرّة فيقول أنها لما كثرت شعوب العرب فى الزمان الأول وتفرقت قبالهم فى أقطار البلاد كان أول من اشتهر منهم أولاد نزار بن معدٌ بن عدنان وهم إياد وربيعة وأنمار ومضر فسكن إياد وربيعة وإنمار ومضر وسكن إياد العراق وسكن أنمار اليمن كما تقدم الإيراد على ذلك فى أول الكتاب فى ذكر نسائهم وسكن ربيعة نجد العريض وما يليها من الأرض وكان رئيس ربيعة بن نزار أسد بن بكر بن مرة فأولد روحان أبو البرَّق وابنة زوجها من لكيز بن مرة فأولد منها خمسة أولاد وهم صاف وعكرمة الأرقم وعقيل ويجير وثلث بنات وهن سعدى وحولة وغلى زوجة البرَّق فزَّج لكيز ابنته سعدى بالملك ثعلبة الأعرج الغسانى وزوَّج خولة وقيل بل اسمها كاملة بشبيب بن لهيم الطائى خال البرَّاق وبقيت ليلى وكان يقال لها ليلى العفيفة وكانت أصغرهنَّ سنًّا وأحسنهنَّ وجهًا وأدبًا وكان البرَّاق بحبها حبًا شديدًا وكان كثيرًا ما يذكرها فى شعرهِ فمن ذلك قوله فيها

ما لعينى جَنَت على عذابا ... سال دمعى قرنفلًا ولبابا
زرع الحب فى بساتين قلبي ... شجرًا أينعت بكا وانتحابا
كلما قلت تسلَّى فؤادي ... ساح دمعى على الخدود انسكابا

قـــبح الله مـــن يلـــوم محبًّـــا ... ولـــين ظـــن فـــى المـــلام صـــوابا
حـــبَّ ليلـــى وحبنـــا آل ليلـــى ... زاد قلبـــى صـــبابةً وعتابـــا
مـــن رأنـــى يقـــول ذا طيـــف جـــنٍ ... أو ســـقيمٌ كفـــى بهـــذا مـــصابا
عمـــرك الله مـــا بجـــسمى ســـقامٌ ... وجنـــونٌ ولا جنيـــت ارتكابـــا
غـــير حـــبٍّ لـــذات وجـــهٍ ملـــيح ... وبنـــان رخـــصٍ يـــزين الخـــضابا
وأثيـــثٍ كأنمـــا الليـــل فيـــهِ ... حالـــك اللـــون بـــات يحكـــى الغرابـــا
مـــن رآهـــا يقـــول ظبيـــة أنـــسٍ ... أو هـــلالٌ جـــلا ضـــياهُ الـــسحابا
قـــد برانـــى وقـــد بلانـــى هواهـــا ... أو قـــد الحـــب فـــى فـــوادى شـــهابا
كـــل يـــومٍ تثـــور فـــى وســـط قلـــبي ... حرقـــةٌ للـــهوى تزيـــد التهابـــا

وكانت ليلى من الغرام بهِ والميل إليه ايضًا بمنزلة عظيمة وكان البراق فى صغره يتبع رعاة الإبل ويحلب اللبن ويأتى بهِ إلى راهبٍ حول المراعى فيتعلم منهُ تلاوة الإنجيل وكان يدين بدينه وكان حليمًا كريمًا شجاعًا وقورًا خبيرًا ومع ذلك لم يبلغ الخمس عشرة سنة حتى جاءَت الحرب بين بنى ربيعة وبنى إياد ولخم فظهر منهُ من القيام والفروسية ما لم يكن لغيرهِ من فرسان الجاهلية فعظمت منزلته فى أعين الناس واستهالوا أمرهُ وأثنوا عليهِ جميلًا وقد ذكرنا أن ليلى العفيفة ابنة لكيز بن مرة قد بقيت فى بيت أبيها وكان البراق يطمع أن يتزوج بها وكان قد شاع فى العرب حسنها وأدبها حتى ذُكِرَت فى مجالس الملوك وتحدثت بها الناس فيكل مكان وكان أبوها لكيز كثيرًا ما يتردد على عمرو بن ذى صهبان أحد ملوك اليمن فيجزل عطيتهُ ويحسن إكرامهُ فوفد عليهِ ذات يوم فأكرمهُ وأتحفهُ بالعطايا الثمينة ثم خطب منهُ فى مجلسهِ ابنتهُ ليلى فلم يردد لهُ جوابًا واستحى منه لجل إكرامهِ لهث وإنعامه عليه وانصرف من عندهِ إلى دياره وبعد أيام قليلة جهَّز إليه عمرو وفدًا بالهدايا السنيَّة فقدموا عليه وقدَّموا ما أتوا بهش من التحف والأموال فأنزلهم أحسن منزلٍ وأكرمهم غاية الإكرام ثم خطبوا منه ليلى فقال أنى قد زوَّجت ابنتين لى بغير إذن قومى وأما هذه فلابد أن أشاورهم فى أمرها فإن وأفقونى كان ذاك أحب ما عندى

وإلا رجعتم إلى صاحبكم قالوا افعل ما تريد فانصرف لكيز على خلوةٍ واستحضر أولاده وقال على بعمكم ربيعة وأولادهُ وخالكم روحان وأولادهُ فجاءُوه بهم وجسلوا بين يديهِ فاستشارهم فى أمرهِ وأطنب لهم فى الثناءِ عليهِ وأنهُ يكون لهم عزًّا وكهفًا فى عظايم الأمور وكان لكيز سيّد قبايل وايل ومدبّر أمورها فأطرق كلّا منهم رأسه على الأرض لأنهم يعلمون رغبة البراق فيها وأنهُ لا يريد غيرها وهم لا يريدون لها غيره فتكلم ربيعة بن مرة وقال:

غرَّبــت كاملــةً وسُــعدَى إنَّمــا ... أغــراك بيعهمــا بنقــدٍ وافــرِ
وظرايــف المــلاك عنــدك لم تــزل ... مــن جــرد خيــلٍ أو ثيــاب حرايــر
فــدع الطماعــة واســل عــن تزويجهــا ... فــى ملــك غــسَّانٍ وملــك مــساور
ولــبن أبيــت بــسوء فعلــك رأينــا ... لــتعضُ فيــهِ علــى بنــانٍ الخاســر

فقال لكيز قد سمعت ما عندك والتفت على كُلَيب بن ربيعة وقال هات ما عندك فقال:

مقالى صوابٌ لن يكن فيك ينجعُ ... وفــى بعــض هــذا مــا يــضرُّ وينفــعُ
أرانــا كأنــا حولتيــك ثعالــبٌ ... وأنــت كُلــضيب النــار لا تنــروَّعُ
نــرى غــير بــرَّاقٍ إذا كــان معظــمٌ ... مــن المــر محــذورٌ يخــاف ويرجــعُ
فإن كان قد أعياك يا عمُّ ما ترى ... فيــارب راس بالــصوارم يقطــعُ
ولــيس الــذى أملتــهُ أن تنالــه ... ولا فى الذى جاءَت بهِ الوفد مطمعُ

واشتد غضب كليب لأنهُ كان يحب البرَّاق حبًّا شديدًا فقال لكيز قد سمعت ما عندك فما ترى يا روحان فقال اعذرونى من ذلك فقال لابد لك من إظهار رأيك فى هذا الأمر فقال:

أخــوك وأنــت أولى بالــصوابِ ... ومــا عنــد ابــن ســولة مــن جــوابِ
ســوى أنــى اميــل علــى رضــاكم ... واكــتم عــنكُم نجــوى الخطــابِ

إذا مـا المستـشار أفـاض مـصحّا ... ولم يقبـل أفـاض إلى العتـابِ
فكـل الـرأى اقبلـه لـديكم ... ولـو فيـهِ عظيمـات المـصابِ
دعـوا رأئـى فلـيس لـهُ سـبيلٌ ... ورأيكُـم المفـوَّض فـى الـصعاب

فلما سمع لكيز كلام صهرهُ قال لابن أخيهِ نويرة أَشر علينا يا نويرة بما أنت أهله فقال:

أشـير وهـل رأيـى يـصحُ ويقبـلُ ... ورأيـك فـى مـا تدَّعيـهِ مفـضَّل
وأنـك بـالرأى المفـوَّض عـارفٌ ... وغـيرك فـى هـذا يـضلُّ ويجهـل
لعمـرى وإن كانـت ظنـونى كـثيرةً ... فإنـك للـبرَّاق تـأبى وتخـذل
وترغـب فـى فـل الملـوك لأنهـم ... لهم فى فنون الفضل ما هو أفضل
وإن طالـت المـلاك بالنيـل والجـدى ... فـإن بـد الـبرَّاق بـالروع أطـول
وإن تطلب الرأى الذى ليس نافعًا ... فليس أخـو قـولٍ كمـن هـوَ يفعـل

فقال لكيز قد دعوناكم للمشورة فما بال التهدد والوعيد ثم أعرض عنهم ليسمع ما عند المهلهل بن ربيعة وكان اصغر أخوتهِ فتكلم المهلهل وأغلظ لعمهُ بالكلام وتنفس مغضبًا وقال:

مـا لى وللـرأى فـى مـا كنـت أجهلـهُ ... وأنـت تعلـم مـا تهـوى وتفعلـهُ
بـالله مـا جئـت إلَّـا مـا علمـت ومـا ... يخفـى عليـك الـذى تنـوى وتعقلـه
لـو كنـت ترجـو بنـى عـمٍّ وتأملـهم ... مـا كـان يقـصاك مـا جـاء أفـضله
فالبس حريـرك أنـى عنـك فـى شغلٍ ... لباسـى الـصوف أرضـاهُ وأقبلـهُ
لا ترجـونَّ لكرامـات الملـوك ولا ... تعجـل بـأمرك لـشر الأمـر أعجلـهُ
أرح فـؤادك واردد مـا أتـوك بـهِ ... واقنـع بعيـشك هـذا الـرأى أجملـهُ

فتبسم لكيز من كلام المهلهل ثم أقبل على شريف قومهِ وقال يا برَّاق أن هذا الملك سبقنى بالنعمة وعمنى بفضلهِ وكان يظنُّ بى ما يظن بالسادات أنها مطاعةٌ

متبوعةٌ فخطب إلى فى مجلسهِ وخاصَّتهِ ووزرائه وقد أنعمت لهُ أملًا فيك وحسن ظنِّ بك غير مخالف وجل قصدى بان يكون هذا الملك فرجًا لشدايكم وحصنًا فى جواركم وذخيرةً لعظايم أموركم وما ظننت أحدًا يخالفنى غيرك وقد سمعت جوابهم فهل ترضى يا بُنى أن تخالف عمك فى هذا الأمر ولم أقل ذاك إلّا بعد علمى بصبرك وشرف نفسك ونخوتك لعشريتك فلما سمع البراق كلام لكيز تنفس الصعدا وأنشد يقول:

يـا طالـب المـر لا يعطـى أمانيـهِ ... استعمل الصبر فى ما كنت تبغيهِ
والبس لـشرك مـا تخفيـهِ مجتهـدًا ... والبس عفافك فى ما كنت تعنيهِ
يـا أيهـا الـشيخ والمرجـوّ نايلـهُ ... ناديت من هو ما يرضيك يرضيهِ
أنـى أشـير بمـا تهـواهُ متبعًـا ... هـواك دع عنـك مـاذا أنـت تأتيـه
أكـرم وفـودك والميعـاد أَوفِ بـهِ ... ودع ربيعـة فـى مـا قـال وابنيـهِ
فصاحب الصدق يجنى صدقهُ حسنا ... وصـاحب الـشر سـوء الـشر بجنيـهِ
أنت المعوَّل فى أهليك حيث نرى ... لثـوب عرضـك أثوابًـا تنقيـهِ
فأكرم بناتك وافعل ما أردت بها ... مـن صـالحات ومـن خـير ترجّيـهِ
لكيـز لا تغـدرن مـا كنـت موثقـهِ ... ومـن عنـاك فـإنى سـوف أعنيـهِ
اتبـع مـرادك لا تتبـع كليـب فمـا ... يـرد قولـك لغـوٌ كـان لاغيـهِ
لا تنظـرن لـسقمٍ حـل فـى جـسدي ... فـصاحب الـداءَ يلـقَ مـن يداويـهِ
يـا أيهـا الوفـد قـد فـزتم بحـاجتكم ... وفـد بـن صـهبان عمـرو نحـن نفديـهِ
الواهـب الميئـة الحمـراءَ يتبعهـا ... مـن وافـر النقـد آلافٌ لراجيـهِ
لا تخبرن عمرو من قولى بفاحشةٍ ... فلـست أرض بـذمٍّ أن أكافيـهِ
واهـدِ التحيـة منـى لابـن ماريـةٍ ... وطيّبـات سـلامٍ سـوف أهديـهِ

فلما فرغ البراق من شعره قام أبوهُ وإخوتهُ وربيعة وأولادهُ مغضبين وأقبلَ على

لكيز أولاده يلومونهُ وقالوا يا أبانا أن غضب عمنا وبنيه لشانق عظيم فهل لك أن لا تفعل. فقال أن البراق ثمرة فوادى ولا شيء يفوتهُ عندى وقد عذرنى لذكاءِ عقلوه وسعة صدرهِ فكونوا طوعى من بعدهِ * ثم أمر لهم بجياد الخيل التى أهداها لهُ الملك وقسمها بينهم يريد أرضاهم بذلك فقالوا نحن راضون لرضاهم وساخطون لسخطهم وافترقوا * وقام لكيز إلى الوفد وأخبرهم بما كان فقالوا لا نرى رأيًا حتى نخبر الملك بما أنتم عليه * ثم ودعوهُ وانصرفوا على الملك وأخبروهُ بما كان وأنشدوه أبيات القوم فشكر البرَّاق وقال سوف أكافيه على مرونه وحسن أخلاقه * قال ابن نافع ولما يئس البرَّاق من ليلى اشتد بهِ الوجد وصبر ذاك اليوم إلى أن أظلم الليل فقصد أبيات ليلى ودخل عليها وهى نايمة فأيقظها وكانت محجوبة عنه بمظنة خطيبتهِ إياها فقالت ما ذاك يا برَّاق فقال جئتك زايرًا ومودعًا وأخبرها بأن أباها أنعم بها للملك فتنفَّست طويلًا وقالت يا لك من عمٍّ ما أطولُه * ثم بكت بكاءً شديدًا وقالت له أن الحب قد نزل على وعليك والصبر جلبابٌ أحسن فاعدّ من الصبر ما تعطى بهِ هواك وتكتم بهِ داءَك فلما رآها البرَّاق على تلك الحالة شفق عليها وبكى لبكايها وهمَّ بالانصراف عنها فقالت له أقم هذا الليل نتمتع من الوداع وسيسدل الحجاب من غدٍ ويطول الفراق بيننا ثم أنشدت:

تــزوَّد بنــا زادًا فلــيس براجــع ... إلينــا وصــالٌ بعــد هــذا التقــاطع
وكفكــف بــأطراف الــوداع تمتعًــا ... جفونك من فيض الدموع الهوامع
ألا فأجزنى صاعًا بصاعٍ كما ترى ... تــصوُّب عينــى حــسرةً بالمــدامع

فأجابها البرَّاق يقول:

خــذى بالــصبر لا تبكــى ارتياعًــا ... فــداعى الــشوق أجــدر أن يطاعــا
وغــضى الــصوت يــا ليلــى فــإني ... متــى أخفيــت هــذا الــصوت ذاعــا
ولكنــى ســأعرض عنــك جهــدي ... وأبتــــدل الــــسرايا والرقاعــــا
وأقــرى طــارقى لحمًــا غريــضًا ... وأفــــردهُ الوليــــدات الــــصناعا

ولست وإن حويت جميع هذا أتيت بهِ وربكمُ امتناعا

وقبلى والدى أسد بن بكرٍ ... علا فى الناس فخرًا واصطناعا
وروحانٌ أبى وأخى ظليلٌ ... فشا فى الناس ذكرهما وشاعا
فإن يكن اللكيز عليهِ حكمٌ ... فإن لنا احتكامًا وامتناعا
تعزى واصبرى فلنا عزاءٌ ... نعزيهِ إذا كشفوا القناعا
أكوع عن الفراع ورب قرنٍ ... غداة الروح عنى فيهِ كاعا

وبات البرَّاق يودع ليلى وتودعهُ إلى أخر الليل فخرج وأتى إلى أبيه وأخوته وأمرهم بالرحيل فارتحلوا ونزلوا على بنى حنيفة قومهم واجتمعوا فى أوطانهم وأخذ البرَّاق يعزى نفسه عن ليلى وهو لا يزداد إلا شوقًا إليها وأنشأ يقول:

قل للتى تركت فؤادى هائمًا ... يرعى رياض ديارهم ويروحُ
حسبى بحبك أن أبيت مسهَّدًا ... والدمع من فوق الخدود سفوح
يا ذات وجهٍ كالهلال إذا بدا ... خلق الجمال لديهِ وهو مليح
منى بقربك لأعدمتك مرةً ... حاشا المحب فما المحب شحيح
كم بين من يمسى ينام وآخرٍ ... يمسى على ظهر الفراش ينوح
فانظر خليلى لأعدمتك بيننا ... هل يستوى ذو علةٍ وصحيح

وكان للبراق جارية جميلة يقال لها طريقة قد زوجها بغلامٍ له يقال له سريع * فلما سمع الغلام أبيات مولاه وعلم بشدة شوقهُ ظن أنهُ يريد طريقة فقال لها يا طريقة إنى أرى سيدنا يتكلم بالمحبة والشوق وربما كان ذلك من أجلك فأرى أن تتزينى بأحسن زينتك وتلبسى أخفر ثيابك وتذهبى إليهِ وتكثرى من التعرض له فإن وجدتى له رغبةٌ فيك طلقتك وأثرتهُ بك فتزينت طريقة بحللها وانتهت إلى سيدها وأكثرت من التعرض عليه فلما علم البرَّاق بمرادها أنشأ يقول:

كفى عن التعريض يا طريقة ... إنك قد أصبحت لى صديقة

كريمـــــةً عزيـــــزةً حقيقـــــه علـــى فـــى مـــا قلتـــهِ شـــفيقه
هيهـــات عنـــدى عـــروةٌ وثيقـــه لأكـــرم النـــاس علـــى الخليقـــه

فقامت من عنده مسودًّا وجهها فانتهت إلى زوجها وقالت له قبح الله رأيك لقد فضحتنى ثم أخبرتهُ بما كان وأنشدتهُ الشعر فطابت نفسهُ مما يحاذر.

قال الراوى وإن ليلى بعد رحيل البرَّاق من الحى قد ضاق صدرها واشتد بها الحب وتكاثرت شجونها وعظم عليها فراق البرَّاق وهى كاتمة ما عندها لا توح بهِ إلى أحدٍ خوفًا من الفضيحة * فلما كان ذات يوم دخلت عليها بنت عمها أخت كليب والمهلهل فسلّمت عليها وجلست عندها ثم قالت يا ليلى أمالك أن تجزعى بما فعل أبوكِ بسيّدنا وفارس خيلنا البرَّاق قالت وما ذلك وقد كتمت عنها الخبر كأنهُ لم يكن عندها علم فى شيء فأخبرتها وقالت:

غفلـــتِ ومـــا أنـــتِ بالغافلـــه ولكـــن لكـــى تحـــسبى عاقلـــه
فمـــا زال عقلـــكِ لبًّـــا عليـــكِ ومـــا زلـــتِ مـــشغولةً شـــاغله
أيجفـــــو لكيـــــزٌ لبرَّاقنـــــا جفـــاءً وكنـــتِ لـــه آهِلـــه
وبكـــرٌ وعجـــلٌ وشـــيبانها ســـتُعقَر بيـــنهم الراحلـــه

فأجابتها ليلى تقول:

أُمَّ الأعـــرِّ فـــضحتنى لا تعجلـــي إنـــى أُبـــينُ القـــولَ عنـــدك فـــاعقلي
بـــرَّاق ســـيدنا وفـــارس خيلنـــا وهـــو المطـــاعن فـــى مـــضيق الجحفـــل
وهـــو الـــضيا والـــبرق والقمـــر الـــذى عـــمَّ الكواكـــب بالـــضياءِ الطـــول
وعمـــاد هـــذا الحـــى فـــى مكروهـــهِ ومُؤَمَّـــلٌ يرجـــوهُ كـــل مؤَمّـــل
أم الأغـــر دعـــى ملامـــك واسمعـــي قولًـــا يقينًـــا لـــست عنـــهُ بمعـــزل
وإنـــى أحـــنُّ لمـــا ذكرتـــى وإنمـــا عـــرض العفيفـــة كالنـــسيج المفتـــل
مـــا حيلتـــى فـــى مـــا يـــراهُ أبـــى وهـــل يـــأتى المعـــالى واقـــفٌ فـــى الأســـفل

إن النـــساءَ أذلّـــةٌ مـــستورةٌ يعـرفن بـالرأى الـضعيف الأعـزل

وكان البرَّاق أيضًا قد لحقهُ من فراق ليلى سقمٌ عظيم وغمٌّ جسيم وكتم أمرهُ عن كل أحدٍ وفى أثناءِ ذلك زاره كليب بن ربيعة ذات يوم لينظر ما هو عليه فسألهُ عن حالهِ وكان يعلم أنهُ لا يصبر على فراق ليلى وكان البرَّاق صديق لُه لا يكتم عنهُ أمرًا فأفاض إليهِ بسرهِ وشكا إليهِ وجدهُ عليها فاغتمَّ كليبٌ لذلك غمًّا شديدًا وقال إن لم أنفع البرَّاق بصداقتى مع الرحم الذى بينى وبينهُ فلا حاجة بهِ إلى ذلك ثم خرج من عندهِ لا يردُّ جوابًا وانصرف إلى أبياتهِ ودعا أخوتهُ وأخوة البرَّاق وأولاد عمهِ لكيز فحضروا وجلسوا بين يديهِ فأخبرهم بحال البرَّاق واستشارهم فى أمرهِ وكان أول من تكلم عقيل بن لكيز أخو ليلى فقال:

الأمـر فيـهِ إليـك يـا ابـن ربيعـةٍ فـاحكم بمـا أحببـت فـى الإنجـازِ
واتـــرك لكيـــزًا والـــذى يختـــارهُ لـــيس اللكيـــز إذا حكمـــت بغـــاز

ثم تكلم صافى بن لكيز وقال يا كليب اقضِ ما أنت قاضٍ فى اختنا فنحن لا نريد بهِ بدلًا ولو كان صعلوكًا قليل المال فكيف وهو سيّد العشيرة وغاية كل طلب ثم أنشأ يقول:

أصـدع برأيـك يـا ذا الـرأى والأدبِ والخيـل والـسمر والهنديـة القـضب
هـــذا أخونـــا ومولانـــا وســـيدنا نرضى رضـاهُ ولا نرضـى بـرأى أبـي
لا تـــركننَّ إلى الأمـــلاك أنهـــمُ أهـل الطرايـف والعقبـان والـذهب
ونحـــن أهـــل فـــلاةٍ لا نفارقهـــا ولا نبـــالى مـــن العليـــاءِ والرتـــب
فاصـدع برأيـك لا تخفيـهِ مـشتركًا فأنـت أولى بنـا مـن سـائر العـرب

ثم تكلم عكرمة بن لكيز وقال قد فوّضنا الرأى إليك يا كليب فافعل ما تريد ودبّر ما تختار ثم أنشأ يقول:

رفعنـا إليـك الـرأى يـا ابـن ربيعـةٍ فـدبر بمـا تختـار خـيرَ مفـوَّضِ

ولا تـــترك الـــبرَّاق فـــى غمراتـــهِ وشمّـر لـه مـن قبـل الحـاح مـبغضِ
فـــبرَّاق مولانـــا وفـــارس خيلنـــا وصاحب طعن السمرا وضرب أبيض

ثم تكلم أرقم بن لكيز وقال إن البرَّاق قرَّة أعيننا ودعامة أمرنا فاقض برأيك يا كليب وأنشأ يقول:

لعمـرك مـا الـبرَّاق عنـا بـشاسعِ ولا تـــاركٍ أثقالنـــا فـــى المقـــاطعِ
ولكـن جـلا هـمَّ العـشيرة بعـدما أتـتهم مـن الأعـداءِ كـل الفجـائعِ
فارضـــوا لكيـــزًا باللقـــاح حلائبًـــا وســـوقوا إليـــهِ صـــافنات الجرائـــعِ
امـدُّوا علـى الـبرَّاق واستجلبوا لـهُ فمـستجلب الـشياءِ غـير مـسارعِ
ولا تستـــضيقوا بعـــدها لملامـــةٍ وبعـــذركم منـــا مقالـــة وادعِ
وأنـتم بنـو عـمٍّ جميعًـا وأخـوةٍ لليلـى التـى فيهـا جميـع البـدائعِ

ثم تكلم نويرة بن ربيعة وقال إنكم أطول الناس باعًا وأشدهم امتناعًا وأما لكيز فإذا جدنا له بالعطاء لا يحتاج الملوك بعدها ولا يخاف الفقر ثم أنشأ يقول:

إذا مـا اجتمعنـا فـى صـلاح أمورنـا فمـن ذا الـذى فـى مـا بنينـاهُ يهـدمُ
فـنحن بنـو عـمٍّ وإخوتهـا الأُولـي يجـرُّ لهـم ذاك الخمـيس العرمـرم
فـسيروا إلى ليلـى لإصـلاح شـأنها فكلكـم فـى مـا تـرون المحكَّـم
فعنـدى لعمـى بعـد سـبعين بكـرةً ثمـانِ لقـاحٍ مثلـها الخيـل تقْلَـم
وعنـــد كليـــبٍ مثلـــها ومهلـــهلٍ فقومـــوا إليـــهِ مـــسرعين وقـــدِّموا

ثم تكلم مهلهل بن ربيعة وقال إنكم أحسنتم وأسأتم وأصبتم وأخطأتم فحكّموا كليبًا وسلموا إليهِ الإبل فقال كليب قد أصاب المهلهل فى ما قال فقدمونى على ذلك وأعطونى موعدًا معلومًا فقالوا اللهمَّ نعم وتواعدوا إلى ثلثة أيام لاستتمام ما تفاوضوا بهِ هذا ما كان من أمرهم ولنرجع الآن إلى حديث الملك عمرو بن ذى صهبان خطيب ليلى فإنهُ كان قد أعدَّ هديةً حسنة أفخر ما يكون من الحلى والحلل

واليواقيت والخيل والدروع والسيوف ووجه بها مسلمة بن مالك الغسانى وكان من أكابر دولتهِ وأصحبهُ بجماعة من المتقدمين فى بابهِ وأمرهم بسرعة المسير إلى ديار بنى وائل فامتثلوا أمرهُ وساروا من يومهم يقطعون الأرض حتى وصلوا إلى منازل القوم مسلمة المذكورة بربيعة بن مرة وقسم هدية الملك بين سادات القبيلة حسب ما أمره بهِ مولاه وخصَّ البرَّاق بأحسنها وأفضلها وجدد الخطبة للملك بحضور ربيعة بن مرة وغيره من وجوه العشيرة فأنعم لكيز بزواج ابنته ليلى واشهد عليه القوم بذلك وقد انسر فؤاده بمصاهرة عمرو بن ذى صهبان وطلب منهُ المهلة لجل أن يسعى بتجهيزها وإصلاح شأنها فسمح لهُ وأملهُ إلى أجلٍ معلوم ثم انصرف مسلمة مع من معه إلى الملك مبتهجين بما انعقد على أيديهم ولما بلغ البرَّاق ما كان من خطبة ليلى إلى الملك عمرو شق عليه ذلك وساءَهُ أشد ما يكون وحقد على أهله وأضمر لهم الشر *

قال رواه الحديث وفى تلك الأيام ورد بابل عبَّاد الشبعى غلامٌ لهث يدعى معمر بن سوار وولده الحارث على عين قويرة يسقيانها فوردت عليها إبل عمران بن نبيه السدوسى وكان ذا ثروة فى المال والولد وكان معها ابن لهُ يقال لهُ الفضيل وغلامٌ لهُ فاصطدمت الإبل وتضايق الغلامان فاقتتلا وأخذ غلام السدوسى حجرًا فضرب بهِ رأس غلام الضبعى فقتلهُ فرمان الحارث بسهمٍ فقتله وصرعهُ بين يدى مولاه وكان من رماة العرب فأقبل الفضيل على الحارث فقال له الحارث ارجع إنما قتلته إذ قتل غلامى فلم يلتفت إلى كلامه وتقدم قاصدًا قتلهُ وكان قد نهاه طويلًا وحذرهُ سوء العاقبة فلم ينتهِ فعند ذلك رماه الحارث بسهمٍ آخر فاتبعهُ بغلامهِ وانقلب على إبله فساقها عطاشًا إلى منازل أبيهِ عبَّاد وإخوتهِ فقالوا ما ورآك فأخبرهم بقصتهِ وأنشأ يقول:

قتلت ابن عمران الفضيل وعبده ... بقتل غلامى معمر بن سوارِ

وما رمت قتلا للفضيل وإنما ... أردت ذمامى إذ أخذت بثاري

رميت بهِ سهمًا فعجَّل حتفهُ ... وذلك شيءٌ لم يكن بخياري

إلا فاسعدونى للوقيعة والبلى وإضمار خيلٍ قرّبت لمغار

فتفل أبوه فى وجههِ وقال لا أهلًا بك ولا سهلًا إذن والله أسلمك إلى عمران بن نبيه فيقتلك بولدهِ ولا أبعث على قومى حرب سدوس فقال ولده ليس عمران يقتلنى لودهِ ولا تسليمك إياى يدفع عنك حرب سدوس وقد وقعت فى البلاءِ فالبس له جلبابًا وبلغ الصريخ إلى عمران بن نبيه فأغار فى من حضر من قومه حتى وافى ولده مقتولًا فاحتملهُ على يديهِ وأنشأ يقول:

يا عين جودى بدمعٍ منكِ هتَّانِ على الفضيل السدوسى ابن عمرانِ
فَمن لعينٍ بكت مما أضرَّ بهما ومن لقلبٍ كثير الشجو حرَّان
جنت ربيعة أمرًا لا تطيق لهُ أُفٌّ لها من سحيقٍ عرضهُ دان
بالله ما الثار فى حَرثٍ ووالدهِ ولا أخيهِ ولكن فى ابن روحان
أعنى الفتى السيد البرَّاق وفارسهم أو فى كليبٍ فذاك الفارس الثاني
يا طى عدِّى جياد الخيل واحتملي بيض السيوف فإنى ثائرٌ عان
أضحت سدوسٌ من المغيار قد تيمت من ليث غاباتها أو ليث فتيان
لهفى عليهِ وما لهفى بنافعةٍ إلا تكافح فرسانٌ بفرسان
لابد من غارةٍ شعواءَ يقدمها نصرٌ وجبرٌ ومسعود بن فينان
وفارس الورد منصورٌ وإخوتهُ من كل معتقلٍ بالرمح طعَّان
ثارًا لا روَعَ ذى مجدٍ وذى حسبٍ معلل المجد من بكرٍ وكهلان
والله لا رقدت عينى ولا غفلت حتى أرى الخيل تجرى فى الدم القاني

قال الراوى واجتمعت إلى عمران بن نبيه قبايل سدوس وقالوا الرأى غليك فمر بما شيت فقال لهم ليس فى ضبيعة كفؤًا لولدى ولست أرضى إلا بكليب بن ربيعة أو البرَّاق بن روحان فقالوا ليس هذا برأى أيقتل ابنك الحارث بن عباد وتريد التقاضى بكليب أو البرَّاق هذا هو البغى الصريح فخذ فى ما لا ينكر عليك ودَع الظلم

والجناية واعلم أن حرب بنى ضبيعة سجنى عليك حرب كليب وقومهِ الأراقم والبرَّاق وقومهِ بنى حنيفة وساير بنى شيبان ولا تستخف بذلك فإنهُ سيكون فأنشد عمران يقول:

يـــا خليلـــى قرّبـــا لى جـــوادي ... وقنـــانى دَنَـــا لـــوانُ الطـــرادِ
قرّبـــا صـــارمى ورمحـــى فـــإني ... عـــاد ثـــارى علـــى وضـــيع العبـــاد
شـــرَّ هـــذا الأنـــام خَلقًـــا وخُلقًـــا ... ورضـــيع اللئـــام نـــسل عبـــاد
الجبـــان النفـــور فـــى حومـــة الحـــر ... ب أذلّ الفرســـان يـــوم الجـــلاد
ليست ثأرى على ابن روحان كفوي ... فاشـــتفت منـــهُ علـــة الأكبـــاد
لـــست أرضـــى بحـــى آل عبـــادٍ ... لـــيس فـــيهم كفـــايتى ومـــرادي
فـــجَّ الله حـــيَّهم بئـــيس حـــيٍّ ... جـــاءَ فـــيهش الفـــضاءُ بالمرصـــاد
يـــا سدوسًـــا ألـــيس فـــيكم رشـــيدٌ ... ثاقـــب الـــرأى صـــادق الميعـــاد
كيـــف يرضـــى نـــصرٌ بقتـــل فـــضيلٍ ... مـــا لـــهُ لا يقـــود شـــعت الجيـــاد
مـــا لنـــصرٍ كـــذا ومـــا بـــال جـــبرٍ ... اشـــتكى الـــصمت منهمـــا وأنـــادي
أوحـــدانى وكنـــت غـــير وحيـــدٍ ... يـــوم ضـــرب الظبـــى وطعـــن الـــصعاد

فلما سمع الرجلان وهما نصر بن مسعود وجبر بن طورة شعرهُ أتيا غليهِ وقالا أنت سيدنا ونحن قد سلمناك أمرنا فافعل بما شئت فقال تأَهَّبوا للغارة قالا على من تُغير قال على كليب وقومهِ فقالوا لا نوافقك على ذلك بل نغير على أصحاب ثأرنا بنى ضبيعة فوافقهما على ذلك مكرهًا وبلغ بنى ضبيعة كلام عمران بن نبيه وكراهتهُ التقاضى منهم بولدهِ فأَنِفوا من ذلك واغتاظوا شديدًا وقال عباد فى ذلك:

حـضر الـسهاد وغـاب طيب رقـادي ... لـــسموِّ عمـــرانِ علـــى الجـــواد
وأرى ابـــن مـــرة لا يـــزال مخالفًـــا ... بـــالقول بـــسمو شـــامخِ الأطـــواد
بـــالله لا نرضـــى بفعلـــة حـــارثٍ ... ولنـــأتينَّ بـــهِ علـــى ميعـــاد

ولا حقـــنن دماءَنـــا ودمـــاءَكم ... فـى مـا جنـى الجـانى بغـير مـراد
ولين رجعت إلى اللجاجة فى اللقا ... وطعـــان فرســـانٍ بيـــوم طـــراد
فلتـــشربن بكـــاس حـــربٍ مـــرَّةٍ ... كأسًـــا دهاقًـــا قـــاطع الأكبـــاد
يـــا أيهـــا المغـــرور بـــالحرب الـــتي ... فيهـــا فنـــا الأرواح والأجـــساد
قـد جـاءَنى القـول الـذى قـد قلتـهُ ... قـــول الليـــام مـــورّث الأحقـــاد
فاحذر علـى نـصرٍ وجبرس وادَّخر ... كـــل العـــشيرة أننـــى لـــك هـــاد

ثم أن عبادًا وأكابر قومهِ من بنى شبيعة ويشكر وجَّهوا إلى عمران بن نبيه يعتذرون غليه من قتل ولدهِ وأنهم غير راضين بذلك وسألوهُ أن يكّموهُ فى الدبة وأن يسلموهُ قاتل ولدهِ فيقلتهُ بهِ فلما جاتهُ رسالتهم بكى على ولدهِ وقال لا أقتل الحارث بولدى ولست أقتل غلا كليبًا أو البرَّاق ولما رجعت رسل بنى ضبيعة بجواب عمران شمّرت للفتنة وأخذوا فى إسراج الخيل واستحداد السيوف ونفض الدروع * ثم اجتمع هؤلاءِ وهؤلاءِ والتقوا بمنوَر وهو وادٍ كثير الماء فاقتتلوا قتالًا شديدًا حتى مال الضحى وافترقوا فعند ذلك نزل عمران بن نبيه وكان أشد قومه بأسًا ونادى بالبراز فبرز إليهِ نويرة بن عباد وكان فارسًا شجاعًا فاقتتلا ساعةً وظفر عمران بنويرة فجندله صريعًا ونادى بالبراز فبرز إليهِ عامر بن عباد وكان أفرس إخوتهِ فاقتتلا ساعةً وافترقا على سلامة ثم تعاطفا فاختلفت بينهما طعنتان كان السابق فيهما عمران فأراده سريعًا وتواترت خيل أولاد عباد على عمران فاتبع بعضهم بعضًا وكانوا عشرة فتيان فلم يبقَ منهم إلا الحارث وهو أصغرهم سنًّا فلما نادى عمران بالراز حرَّك الحارث جوادهُ وأراد الخروج إليهِ فزجرهُ أبوهُ وقال مهلًا يا بنى دعنى وفارس سدوس أنا ابرز غليه فإنهُ لم يبقَ من إخوتك غيرك وإننى بعد اليوم لضنينٌ بك فقال الحارث يا أبى دعنى وغياه لخذ منهُ بدم إخوتى أو ألحقهم فما للعيش بعدهم لذةٌ وركض بجوادهِ إليه واطردا ساعةً فاختلف بينهما طعنتان كان السابق منهما الحارث فألقى عمران قتيلًا * ثم جال فى الميدان ونادى بالبراز فبرز إليه مالك بن عمران فاقتتلا ساعةً ثم حمل عليهِ الحارث فأتبعهُ بأبيهِ عمران ونادى

بالبراز فبرز إليهِ أبو الأسود بن عمران فاعتركا ساعةً ثم أتبعهُ بهما وتواردت عليهِ أولاد عمران رجلًا بعد رجل فأتبع بعضهم بعضًا وكانوا تسعة وأبوهم العاشر *

قال الراوى فلما رأت عشائر سدوس ما حل بها حملت على فرسان ضبيعة وهزَّت فى أيديها رماحها. وانطبقت وعلا ضجيجها وصياحها وتعاركت أبطال القبيلتين فى الكفاح والتقت بصدورها أسنة الرماح وقد عظمت الأهوال واقتربت الآجال وكثر القيل والقال وارتجَّت الأرض من وقع حوافر الخيل وغطاهم الغبار فصار النهار كالليل وما زال الأمر بينهم على مثل ذلك حتى ولى النهار وأقبل الليل الحالك وكانت الدائرة على بنى ضبيعة فولَّت مدبرة على أعقابها طالبة أرضها وهضابها . وكان قد قتل منها فى ذلك اليوم جملة من الفرسان وأُسِر سيدهم عقيل بن مروان. وكان الذى أسرهُ نصر بن مسعود فى ذلك يقول نصر المذكور

سائل ضبيعة عنا يوم معركةٍ ... والخيل تبعد أحيانًا وتقتربُ
إن لم تلاقوا بنا جهدًا فقد شهدت ... فرسانكم أننى للشوس اغتصب
أليس عندى عقيلٌ فى سلاسلهِ ... على المذلة والتصغير مرتقب
نحن الكماة بنو الهيجاءِ تعرفنا ... نثنى الكفاح إذا ما معشرٌ ركبوا
مازال واحدنا كاللف إن عطفوا ... وإن أغاروا وهبنا كل ما كسبوا
لا تحسبوا قتل عمران يفوت لكم ... كلا وعندى جياد الخيل والقضب
والسابقات لدن الخط مذّخرًا ... وسادةٌ قادةٌ معروفةٌ نجبُ
لأقتلنَّ بعمرانٍ سراتكمُ ... حتى نكون كنارٍ أكلها الحطب
فترجعون عبيدًا إلى بنى أمةٍ ... وتحملون الذى لا تحمل العرب
لا تعجبون لما أفنت صوارمنا ... وأن أصابوا فتى من جهلهم عجبوا
يا ويل أمكم ما تصعنون إذا ... أغشيكمُ من سدوسٍ ويحكم كتب
أترجعون من الموتى فنعذركم ... أو تصبرون لحربٍ بردها لهب

وبلغ الحارث بن عبادة قولهُ فأجابهُ

سائل سدوس التى أفنى كتائبها ... طعن الرماح التى فى روسها شهب
إن لم تلاقوا بنا جهدًا فقد شهدت ... فرسانكم أننى بالصبر معتصب
يا ويل أمكمُ من جمع سادتنا ... كتائبًا كالربى والقطر ينسكب
فأبا عقيلٍ فلا تفخر بسادتكم ... فأنتمُ أنتمُ والدهر ينقلب
فإن سلمنا فإنا سايرون لكم ... بكل هنديةٍ فى حدها شطب
وكل جرداءَ مثل السهم يكنفها ... من كل ناحيةٍ ليث لهُ حسب
لا تحسبوا أننا يا قوم نفلتكم ... أو تهربون إذا ما أعوز الهرب
كلا ورب القلاص الراقصات ... تهوى بها فتيةٌ غرٌّ إذا انتدبوا

قال واستمرت بنو ضبيعة فى هزيمتها حتى وصلت إلى ديارها ثم اجتمعت سادات العشيرة وانتخبوا الحارث بن عباد وهو ابن ثلثة عشر سنة وأقاموهُ مقام سيدهم عقيل وكان الحارث المذكور مع صغر سنهِ شديد البأس كريمًا غيورًا إلَّا أنهُ لم يقم فى القبيلة إلا أيام قليلة حتى أمرهم بالاستعداد وأخذ الأهبة على حرب سدوس * فامتثلوا أمرهُ وأغاروا ذات يوم بجماعة من الفرسان على مراعى القوم فأصابوا إبلًا ونعمًا فأخذوها ووصل الخبر على سدوس بما كان فنهضوا فى الحال وأغاروا خلف إبلهم فالتقوا بفرسان ضبيعة فلما رأت ضبيعة بأن سدوس قد أدركتها انقسمت قسمين وافترقوا فرقتين فمنهم من لقى الخيل القادمة ومنهم من ساق الإبل * ولما رأس سدوس منهم ذلك الحال انقسموا وتقدمت فرقة منهم لقتال الفرسان ومنهم من لحق الإبل فاقتتلوا قتالًا شديدًا وتطاردت الخيل وحمل نصر بن مسعود على عباد الضبعى فطعنهُ طعنة سقط بها قتيلًا * ثم حمل على ابنه الحارث فالتقاهُ الحارث ومال عليهِ بطعنةٍ فأرادهُ قتيلًا بأبيهِ عبَّاد واقتتلوا إلى آخر النهار ثم افترقوا على غير غلبة.

قال وإن الخيل التى أغارت خلف الإبل استنقذتها ورجعت بها فالتقاها الحارث

ومن معه فأخذوا الإبل * ولما علم ابن نصر بن مسعود بقتل أبيهِ أسرع إلى أسيرهِ عقيل بن مروان فقتلهُ ولم يشعر بهِ أحدًا ولما علم قومه بذلك لاموهُ ولَمًا عنيفًا لأنهم كانوا يذموا قتل السير بعد مكثهِ فى السجن عندهم * وكان أشدهم لومًا جبر بن طورة وبلغ ضبيعة قتل سيدهم عقيل فشدوا خيلهم وأغاروا على سدوس وكان بنو سدوس بعد قتل عقيل بن مروان قد علموا أن بنى ضبيعة لابد أن يغيروا عليهم فاستعدوا لقتالهم فوافتهم ضبيعة والتقت الخيلان فاقتتلوا قتالًا شديدًا وحمل جندل بن عقيل على جبر بن طورة فطعنهُ طعنةص قتلهُ بها فحمل معمر بن طورة وحمل معه مسعود بن جندل والحارث بن عباد فالتقوا واعتركوا شديدًا وطعن مسعود جندلًا فاستنقذتهُ ضبيعة وحمل الحارث على معمر فضربهُ ضربة قتله بها ثم افترقوا وعاد الحارث بن عباد يجر قناتهُ وهو يقول:

لقد شهدت حقًا سدوس بأنني ... أنا الفارس المعتاد قطع الحناجرِ

تلقيت نصرًا والمعمر بعده ... واردیته كرهًا برغم المنافر

وسوف يرى منصور منا عجائبًا ... بعد ذكرى فى جميع المحاضر

ولابد من غيرٍ يتابع غيرهُ ... ويتبع أولادها وشيكًا باخر

ظننتم سدوسٌ إذ قتلتم والدي ... وتسعة إخوانى أُمدُّ بعاشر

فهلا علمتم أن حولى فتيةٌ ... تصول على بيض السيوف البواتر

واجتمعت بعد ذلك سدوس ويل الحرَّاح وبنو جديلة وأغاروا على بنى ضبيعة وقتلوا منهم مقتلةً هائلةً وأخذوا أموالهم وسبوا حريمهم ولم يبقوا فيهم بقيَّةً وبلغ الصراخ إلى كليب وإخوتهِ وسائر رهطهِ الأراقم وإلى قومهم بنى جشم فشدوا وأغاروا على كل صعب وذلول وأغارت عشاير تغلبٍ كلّ من سمع الصوت ولحقوا بالقوم فى أريطة فاقتتلوا قتالًا شديدًا واستنقذوا أموال قومهم وحريمهم ولم يذهب لم شيءٌ * ثم تطاردت الخيلان فلما تباعدوا حمل منصور بن طورة أخو جبر على صافى بن لكيز فقتلهُ وحمل منصور بن رياح البُجَيرى فأتبعهُ بهِ وحملت فرسان

جديلة على كليب وحمل أخوة نويرة وأولاد عمهِ ثم حمل الجرَّاح وحملت الأراقم ثم حمل آل بُجّير وحمل الحى من جشم ثم حملت سدوس وحملت ضبيعة فاقتتلوا قتالًا شديدًا حتى حجز بينهم الليل وكان يومًا عظيمًا كثر فيهِ القتل والنهب ثم تفرقوا وانصرف كلٌّ منهم على حال سبيله هذا وقد تعاظمت الفتنة بين الحيين واتسعت واعيى التدبير فى الصلح بينهما حتى لحق شرهما من كان معتزلًا عنهما كالبرَّاق بن روحان فإنهُ كان قد اعتزل فى قومهِ بنى حنيفة وشبيب بن لهيم الطائى وهو خال البرَّاق فإنهُ كان معتزلًا أيضًا هو وأولادهُ واجتمعت قبايل طى ونزلت على شبيب المذكور لعظمة مكانه فيهم وجودة رأيه وفوضوا أمرهم إليه وأرادوا قيامه فيهم لجل قطع الأرحام بينهُ وبين قبايل وائل فكره شبيب ذلك وامتنع فألحوا عليه ولم يعذروه فقال ويحكم إنما نصبتمونى لتعظيم الفتنة بين الحيين منا ومنهم وإننى لا أفعل ذلك فقالوا قد رأينا ذلك ولابد منه وليس بنا قلَّةٌ ولا ذلَّةٌ وإنما أردنا رياستك ومشورتك فأجابهم واتفقت قبايل طى وأحلافهم قضاعة على فتنة ربيعة وانضم بعضهم إلى بعض وتجاورت حللهم قال صاحب الحديث فلما بلغ قبايل ربيعة ما اتفقت عليه طى وأحلافهم وقيام شبيب الطائى فيهم كبر عليهم ذلك واستعظموه وقالوا قد جل الخطب فلا قرار لنا عليه واجتمع إلى البرَّاق كليب وإخوتهُ ورهطهُ الأراقم وساير قبايل ربيعة وكان البرَّاق معتزلًا بقومه بنى أسد وبنى حنيفة لرغبة لكيز بابنته ليلى عن البرَّاق وأنعامه بها للملك عمرو بن ذى صهبان كما تقدم القول على ذلك ولما أقبلوا على البرَّاق رأوهُ فى نادٍ عظيم من قومه فسلموا عليه وجلسوا إلى جانبه فترحب بهم وأكرمهم وقال هل من علمٍ يا بنى العم فقال كليب أعلم يا أبا النصر أن قبايل طى وقضاعة قد اجتمعت على حربنا وأبيات ربيعة متفرقة وأنتم تعلمون عواقب هذه الأمور فاجعل لنا أمرًا نكون عليه وأنشأ كليب يقول:

إليك أتينا مستجيرين للنصرِ	فشمر وبادر للقتال أبا النصرَ
وما الناس إلا تابعون لواحدٍ	إذا كان فيهِ آلة المجد والفخر
فنادِ تحبك الصيد من آل وائلٍ	وليس لكم يا آل وائل من عذر

فأجابه البرَّاق يقول:

وهل أنا إلَّا واحدٌ من ربيعة ... أعزُّ إذا عزُّوا وفخرهمُ فخري
أعزُّ إذا كانوا كرامًا أعزةً ... وأخر كل الخسر فى ساعة الخسر
سأمنحكم منى الذى تعرفونهُ ... وأشمّر عن ساقى وأعلو على
وادعو بنى عمى جميعًا وإخوتي ... إلى موطن الهيجاءِ أو مرتفع الكرّ

فلما سمع كليب شعرهُ علم ما هو منطوٍ عليه من الأحقاد فقال يا أبا النصر ما هذا مكان عتابٍ ولا حقدٍ ولكنهُ وقت القيام والاهتمام وإلَّا تشتت شمل القبيلة فى الآفاق وشمتت بنا الأعداء فقال البرَّاق يا كليب ليس هذا حقدًا منى ولا خلافًا غير أنى لست أهلًا للرياسة ولا كفؤًا للقيام بهذا المر وما أنا غلا رجلٌ منكم فعليكم بليكز بن مرّة زعيم بيوت ربيعة فهو أحق من كل أحد فى هذا الأمر * ولما علم كليب بان البرَّاق لا يوافقهم على القيام فيهم انصرف بمن معهُ وبلغ شبيبًا الطائى اجتماع سادات ربيعة إلى ابن أختهِ البرَّاق وأنهم أرادوا قيامهُ فيهم فامتنع من ذلك لرغبة لكيز بابنتهِ عنه أرسل بطلب خروجه إليه لجل أن يكونوا يدًا واحدة على قتال ربيعة وأنهُ إن أجاب سؤاله يزوجه بمن يشاء من أشراف بنات طى وأرسل إليه هذه الأبيات:

ألا أبلغ البرَّاق منى نصيحةً ... بأنا إليكم أجمعين نسيرُ
قبايل طى كلها قد تجمعت ... وأحلافها جاءَت لهنَّ نغير
فهل لك تأتينا سريعًا مسلمًا ... فإنى لكم ذو نصرةٍ وظهير
ألم تذكروا لما جفاكم لكيزكم ... وأعرض عنكم والكلام كثير
هلمَّ إلينا كم أزوّجك ابنةً ... لها شرفٌ فى طيها وطهور
ودع عنك إهمالًا فإنهم ... أقاطيع أرحامٍ وأنت نصير

فلما بلغت البيات البرَّاق أخذتهُ الغيرة وحميَّة النفس وزال ما كان فى قلبه من الحقد والنفور على قومه ثم إنه دفع البيات إلى أبيه روحان وقال له أجب صهرك

فقال يا بنى الخطاب إليك والجواب عليك فأجبهُ بما أنت أهلهُ فأجاب البرَّاق وخالهُ يقول:

لعمرى لست أترك آل قومي ... وارحل عن فناءِى أو أسير
بهم ذلى إذا ما كنت فيهم ... على رغم العدى شرفٌ خطير
وإنى ما أقمت معًا وأهلي ... فلى مجدٌ ولى خطرٌ كبير
أأنزل بينهم إن كان يسرٌ ... وأرحل إن ألمَّ بهم عسير
واترك معشرى وهُم أناسٌ ... لهم طولٌ على الدنيا يدور
ألم تسمع أسنتهم لها في ... تراقيكم وأضلعكم صرير
فكفُّ الكفَّ عن قومى وذرهم ... فسوف يرى فعالهُم الضرير

فلما فرغ البرَّاق من شعره وثب أبوه روحان فقبلهُ بين عينيه ومدحهُ وأثنى عليه وقال لله درك من سيدٍ كريم وبطلٍ عظيم لقد تكاملت فيك الرياسة والشجاعة والفصاحة والبراعة فلك الفخر على جميع القبايل بالفضل والذكر الحميد الذى ليس بزايل. ثم أمر له بمهرتهِ الشبوب التى يجريها تسابق ريح الجنوب وهى من أجود خيول العربان. أبوها جافل من خيل قضاعة وأمها من خيل بنى شيبان فعند ذلك قام البرَّاق إلى إخوتهِ وأمرهم بالركوب والمسير على أبيات ربيعة يستصرخون قبائلهم وأحلافهم للحرب فقال أبوهُ روحان هل تأمر إخوانك وتترك غلمانك فقال:

أما العبيد فلا تدعى من الرُسلِ ... فما يجيب بنو شيبان بالأسل
إلَّا لأولادك الغر الكرام إذا ... جاءَت ترامى بهم مهرِّيةُ الإبل
واستقبلوا آل ذهلٍ بالصريخ ضحى ... وآل عجلٍ إليك اليوم فى عجل
وآل عمران والرسلان قاطبة ... تأتيك فى عجلٍ منهم بلا مهل

ولما فرغ البرَّاق من إنشادهِ كسر قناتهُ وأعطى كل واحدٍ من إخوتهِ كعبًا منها وقال اركبوا وحثوا أفراسكم وقلدوا نجائبكم قلايد الجزَع فى الاستنصار لقومهم

فامتثلوا رائهُ وافترقوا فى أحياءِ ربيعة فكان كل واحدٍ منهم يقدم بكعبٍ من قناة أخيهِ وراحلتهُ مقلَّدة فجزعت ربيعة لجزع البرَّاق وأخذت أهبتها للحرب وجاءَت قبائل ربيعة من كل ناحيةٍ وانضمت إلى البرَّاق ثم نزلت سادات ربيعة بالرَّاق فاستقبلهم بأحسن القبول وأكرم وأعطى وكسا وقرى وعقدوا الرياسة لهُ وسلموهُ أمرهم ونهيهم وبينما هم كذلك قدمت رسل شبيب بن لهيم الطائى المذكور آنفًا يحذّرهم وينذرهم ويقول قد اجتمعت إلى قبايل طى وقضاعة من كل فجٍ عميق وخص البرَّاق بأبياتٍ يقول فيها:

أقروا سلامى على البرَّاق من رجلٍ ... ذاكى العمومة من قومٍ ذوى كرمِ
هذه قبايل طى مع قضاعتهم ... قد أشعلوا الحرب إذ قامت على
حلوا السهولة والغيطان واعتقلوا ... من الرماح بأعلى الشم فى الأكم
فوطّن النفس يا برَّاق منتظرًا ... هذى الكتائب إذ تأتيك من أمم
يا ويح أمك من حشر الجنود ومن ... خفق البنود ومن سفك الدما بدم
فليس يأتيك إلَّا كل منتخبٍ ... وأرى العزيمة فى الهيجاءِ كالضرم
وكل لدنٍ يرى ضوءَ السنان بهِ ... كلمع برقٍ إذا ما لاح فى الظلم

فأجابه البرَّاق يقول

لقد وجدتك فى بعض الكلام عمي ... إذا رحت تأخذ فى حربٍ لمنتقم
مخوّفًا لى بجندٍ لست أحسبهم ... فى كل أصيد من عربٍ ومن عجم
فما لدى سوى قومٍ ذوى حسبٍ ... ربيعة الشمَّ إذ قاموا على قدم
خلوا شبيبًا ووادى الراس واجتمعوا ... إلى بالمال والأهلينَ والحرم
فاستقدموا طى ذى شيبان قاطبةً ... وتغلبٌ وسراة الحى من جشم
والوائليون قد قاموا بأجمعهم ... من كل منتخبٍ يأتيك عن أمم

وبعد ما رد البرَّاق جواب خالهِ وانصرف رسولهُ نادى فى قومهِ بالرحيل وقال يا

بنى ذهل يا بنى عجل يا بنى مرة يا بنى الأزد يا بنى ضِرار يا بنى لخم يا بنى يشكر يا بنى ضبيعة يا بنى الحارث يا بنى جشم يا بنى نمر يا بنى قسم يا بنى عبس يا بنى مالك يا بنى بهران يا بنى مروان يا بنى على يا بنى الجرَّاح قد علمتم كثرة قبايل طى وشدة بأسهم ونجدتهم فشدَّوا بنا الخيل وابدواهم بالغارة فناهبوا من وقتهم وركبت الفرسان ظهور الخيل وأغاروا على طى وفى أوائلهم نويرة بن ربيعة وأخيهِ المهلهل والحارث بن عباد وفى آخرهم البرّاق وكليب يحث البرَّاق على فتنة آل طى وقضاعة وقال يا برَّاق ناشدتك الله والرحم لا وأخذتنا بذنب رجلٍ قد غاب عن رغدة وسقطت نفسهُ وذهبت همتهُ وغرَّهُ ما عند الملوك من الجاه والمال حتى كان من أمره ما كان فانصح قومك ولا تخذلهم فقد أجابوا داعيك وأرادوا صنيعك وأقروا بفضلك ثم إن كليبًا بعد ذلك اعتزل بأبيهِ وإخوتهِ عن البرَّاق وساروا فى أوايل العسكر وكان البرَّاق قد تذكر صنيع طى وما عولت عليه من قتال ربيعة فالتهب فؤادهُ غيظًا وحنقًا ولحقته حمية الجاهلية فقال:

أقـول لنفـسى مـرَّةً بعـد مـرَّةٍ	وسمر القنا فى الحى لا شك تلمعُ
أيا نفس رفقًا فى الوغى ومسرَّةً	فما كأسها إلَّا من السم ينقع
إذا لم أَقُدْ خيلًا إلى كل ضيغمٍ	فأكُلُ من لحم العداة وأشبع
فلا كسبت من الخيل أدهمًا	ولا عشت محمودًا وعيشى موسَّع
ولا قدت من أقصى البلاد طلائعًا	ولا صارمًا غضبًا من البيض يلمع
إذا لم أطا طيًّا وأحلافها معًا	قضاعة بالأمر الذى يتوقع
فسيروا إلى طى لنخلى ديارهم	وتصبح من سكانها وهى بلقع
ولا تتركوا شيخًا لطى ولا فتى	ولا امرأةً تمشى ولا الطفل يرضع

ثم أنهم جدوا فى قطع القفار حتى قاربوا ديار القوم فى نصف النهار فعند ذلك نادى البرَّاق على من حوله من السادات والفرسان. وقال يا قوم إن مكان كليب ومن معهُ من إخوتهِ وقومهِ الأراقم لا يقوم بهِ إنسان. لأنهم أنموذج الفخر. وعمدة

أبطال هذا العصر وقد حضرنى رأى فى هذه الساعة فيهِ يكون النجاح على قتال آل طى وقضاعة * فقالوا الرأى إليك فى ما تريد لأننا طوع يديك وعن أمرك لا نحيد فقال انتخبوا من جياد خيلكم واحملوا عليها من خفاف فرسان الكفاح وقدموهم أولًا ومتى توسطوا من حلل طى وضعوا فيهعم السيوف والرماح فإذا ارتجت الناس وارتفع الصياح ثنوا إلينا أعنة خليهم ونحن متأهبون فى هذه البطاح فإذا جاءَت خيل الأعداء فى أثرهم حملنا عليهم من كل جانب وبذلنا فيهم سُفار القنا والقواضب فقالوا نعم الرأى ثم إنهم انتخبوا جماعة من خفاف رجال القبايل على جياد خيلهم الأصائل وأمرهم بالمسير والغارة من ذلك اليوم على حلل القوم فأغاروا ووضعوا فيهم السيوف المشرفيات وعلت الأصوات وتبادرت إليهم الناس من ساير الجهات إلى أن تكاثر العدد وتزايد المدد فعند ذلك انقلبت خيل البرَّاق راجعة إلى وراها كما أمرها سيدها ومولاها فحلقتها جموع طى على الأعقاب مع من يتبعها من الأحلاف والأحزاب فصاح فيهم سيدهم شبيب بن لهيم وقد أنكر هذا الأمر غاية الإنكار وقال ارجعوا يا قوم فإن هذا مكر ابن أختى البرَّاق ولا شك إنهُ مكمن لكم فى بعض جوانب هذه القافر فوقف من سمع الصياح وارتجع ومن لم يسمع استمرّ فى غارتهِ وأسرع وقد اخله فى القوم الطمع فلما توسطوا قبايل ربيعة التقتهم الفرسان وانطبقت عليهم من كل جانب ومكان وبادورهم بالضرب والطعان فاعتركوا ساعةً وبعد ذلك ولَّت فرسان طى مدبرة على الأعقاب وانقلبت ليشم انقلاب. لأنها رأت من البرَّاق طعنًا مرا وضربًا لا تجد الأبطال عليهِ صبرا *

قال صاحب الحديث وكان شبيب الطائى قد حسب هذا الحساب. وقرى عنوان الكتاب. فصاح فى قبائل طى وإلى من اجتمع هناك من كل حى وأمرهم بأخذ الأهبة للقتال والحرب والنزال فاستعدت الرجال وركبت الأبطال فى ساعة الحال وقد غاصوا فى الحديد مسربلين بالزرد النضيد وفى أوايلهم سيدهم شبيب المذكور وأخيه عمرو الفارس المشهور وما أبعدوا عن المضارب حتى التقوا بخيل طى مهزومة وهى فى حالة التعس والويل وأبطال ربيعة من خلفها على ظهور الخيل * فعند ذلك ضجَّت جموع طى من كل جانب لما رأت ما حل بقومها من الأهوال والمصايب وانقسمت فرق ومواكب وحمل شبيب وصاح فى الفرسان فعطفت الخيل

والتحكم الجيشان وتصادمت مع بعضها الشجعان ونهبت الأرواح من الأبدان وطلع القتام إلى العنان وبان الشجاع من الجبان. وجرت الدما مثل الغدران وكانت أبطال حى قد حملت بهم جرية وقلوب قوية فاستطالت على بنى ربيعة وقتلت منهم مقتلة مريعة حتى حمل البرَّاق ومن معهُ من الرفاق فاعتركوا ساعةً إلى آخر النهار ثم افترقوا عن غير غلب بعد قتل وجراح *

قال الراوى ولما انفصل القتال أقبل عمرو بن لهيم الطائى على أولاده وقال يا بنى لم أعدّكم إلَّا لأمر يكون فيه السرور وبلوغ الأرب. وتعرفون بهِ بين قبايل وائل وساير العرب. واعلموا أن بنى أختكم أشد الناس بأسًا وأعظمهم مراسًا. وقد جاءَتكم الآن بفتيةٍ كالسباع لا تختشى من الموت ولا ترتاع. وهم البرَّاق وجُنيد وظليل وسالم وعمرو وأبوهم روحان فأنت يا ولدى نصير كفؤًا لبرَّاق وأنت يا ولدى غنم كفو جنيد وأنت يا سالم كفو سالم وأنت يا جبر كفو عمرو * وأنت يا طوس كفو ظليل ومصعب وحبيب وعامر لنويرة وكليب والمهلهل فلما بلغ البرَّاق وصية عمرو لأولاده وتحريضهِ لهم على قتال البرَّاق وإخوتهِ خاصةً نادى إخوتهُ جميعًا وقال قد علمتم شأن هذا الرجل ووصيتهُ لأولادهِ وتحريضهُ لهم علينا فإذا نادى أحدٌ منهم بالبرَّاق فلا يبرز إليه أحدٌ منكم فأنا أولى بهِ لعلى أردهُ سالمًا ولا نفجَع أمَّنا بقتل واحدٍ من إخوتها فيكثر عويلها ويطول حزنها وهى غريبةٌ بيننا ولما كان فى اليوم الثانى التقى القوم فلما تقابل الحيان قام عمرو بن لهم ونادى ولده نصيرًا وقال ابرز إلى ابن أختك البرَّاق فقد مكنتك الفرصة منهُ فبرز نصير وطلب براز البرَّاق فبرز إليه وهو يقول:

دعـــانى نـــصيرٌ إلى المكرمـــاتِ ... لرفـــع الـــسيوف ووضـــع القنـــاةِ
فيـــا أيهـــا الخـــال مـــا شـــاقني ... ســـواك وأبغـــضت طـــول الحيـــوةِ
رويـــدك أخـــبر وأنـــت الخـــبير ... ألـــست المجـــرب حـــرب الكمـــاةِ

فأجابه نصير يقول:

مـا الـذى قـد رأى أبـو النـصر مـني ... وأبـــى عمـــرو لا يخيّـــب ظـــني

أكـــرمُ الـــسابقين كـــرًّا وفـــرًّا فـأكرم الـرمح يـا ابـن أختـى مـني
فعليـت مـا قـضيت أنـى أقـضي وعلـى مـا بنيـت أنـى ابـني

فلما سمع البرَّاق كلام خالهِ تبسم وأقبل عليه فتعاطفا فرسيهما ولم يضمر كلٌّ منهما لصاحبهِ شرًا وافترقا على سلامة واقتتل القوم إلى غروب الشمس وراح كلٍّ منهم على غير غلبة وأنشأ البرَّاق يقول:

دعـــانى ســـيد الحـــيين منـــا بنـــى أســـد الـــسميدع للمغـــارِ
يقـــول إلى الـــوغى ذهلًـــا وعجلًـــا بنـــى شـــيبان فرســـان الوقـــار
وآل حنيفـــةٍ وبنـــى ضُـــبيعٍ وأرقمهـــا وحـــى بنـــى ضـــرار
وشوسًـــا مـــن بنـــى جـــشمٍ تراهـــا غـــداة الـــروح كالأســـد الـــضواري
وقـــوم بنـــى ربيعـــة آل قـــومي تهيَّـــــت للتحيَّـــــة والمـــــزار
إلى أخـــوالهم طـــى فاهـــدوا لهـــم طعنًـــا مـــن العنـــوان واري
صـــجناهم علـــى جُـــرٍّ عتـــاقٍ بأســـيافٍ مهنـــدةٍ قـــواري
ولـــولا صـــيحاتٌ أســـعفتهم جهـــارًا بالـــصراخ المـــستجار
لمـــا رجعـــوا ولا عطفـــوا علينـــا وخـــافوا ضـــرب بـــاترة الـــشفار
فبالـــك مـــن صـــراخٍ وافتـــضاحٍ ونقـــعٍ ثـــائرٍ وســـط الـــديار
علـــى قـــبٍّ مـــسوَّمةٍ عتـــاقٍ مقلَّـــــدةٍ أعنتهـــــا كبـــــار
تعطـفُ بالقنـا فـى كـل صـبحٍ وتحـل فـى العجاجـة والغبـار
وقـد زرنـا الـضحاة بنـى لهـيمٍ فأحـــدرناهم فـــى كـــل عـــار
فيممـــت الـــسنان لـــصدر عمـــرٍ فطـاح مجنـدلًا فـى الـصف عـاري
وقـد جـارت يـداى علـى خميسٍ بـــضربة بـــاتر الحـــدَّين فـــار
وأفلـــت فـــارس الجـــراح مـــني لـــضربة منـــصلٍ فـــوق الـــسوار
فقـــل لابـــن الـــذُّعير النـــدل هـــلا تـصبر فـى الـوغى مثـل اصـطباري

ألم ادعــوهُ فــى ســبقٍ فــولَّى كمثــل الكــبش يــأذن بالحــذار
أنــا ابــن الــشمّ مــن سـلفى نـزارٍ كــريم العــرض معــروف النجــار
وحـــولى كـــل أروع وائلـــيٍّ ســـديد الـــرأى مـــشدود الإزار

فأجابه مالك بن الذعير يقول:

تبــدت علــوةٌ خلــف الــستارِ غــداة تحملــت بــين الجــواري
بوجــهٍ مثــل ضــوء الــبرق طلــقٍ وشــعرٍ كالــدُجى تحــت الخمــار
ومقلــة جــودرٍ مــن وحــش نجــدٍ وثغــرٍ مثــل ســاطعة الــدراري
تنــسَّمنا فتــات المــسك منهــا يفــوح مــن المعَّــر والعــذار
فــدع عنــك الهــوى بجمــال خــودٍ مــضت لــسبيلها بعــد المــزار
ولكــن هــاك معربــةً جيــادًا مولــدةً مهــارًا مــن مهــار
تعــادى فــى ربيعــة عاديــاتٍ بأيــام المغــار علــى نــزار
نعللــها لبــان الحمــر حتــى تــرى الألــوان حمــرًا باصــفرار
قريناهــا ربيعــة يــوم جــاءَت إلينــا طالبــاتٍ أخــذ ثــار
وظلَّــت تطــرق الــبرَّاق جهــرًا فكيــف نــويرةٌ ولــد الحمــار
مــضى فــى النقــع منهزمًــا حقــيرًا كمثــل المــاءِ يحــك فــى القــرار
ويحــبر والديــهِ وأى حــيٍّ أحــق لوالديــهِ بكــل عــار
ألم يرجــع كليــبٌ رُدَّ خوفًــا لرمحــى راخــى الــوركين خــار
وخالفــه الأراقــم مــع لكيــزٍ لخــوف الطعــن والعــضب الفــرار

قال ولما سمع كيب شعر مالك استشاط غضبًا وحقد عليه وحلف أن لا يأكل ولا يشرب حتى يلقى مالك بن الذعير ويهين السيد منهم والأمير فعند ذلك انتهى إلى البرَّاق وطلب منهُ أن يعيرهُ فرسهِ الشبوب الذى وهبهُ لُه أبوهُ روحان. ولم يكن فى خيل العرب أسبق منهُ فى ذلك الزمان فأسلمهُ إليه ولم يكن يعلم ما يريد به. فشد

كليب على الشبوب ولبس لأمة حربهِ ثم قصد أبيات بنى جديلة فى ظلام الليل الحالم وسأَل بعض الرعاة فدلهُ على خباءِ مالك فتقدم ونادى يا مالك فأجابهُ من أنت ومن تكون قال رجلٌ من أحلافك السكاسك والسكون. غُزِيت هذه الليلة وقد فقد جميع مالى وساءَ حالى فأتيت إليك مستجيرًا فكن لى معينًا ونصيرًا وكان مالك من سادات فرسان الجاهلية موصوفًا بالنخوة والحمية فلما سمع مقاله شفق عليه ورثى لحاله ونهض فى الحال ولبس لأمة حربه وجلاده وركب على ظهر جواده فلما برح بهِ عن الحى وراءَهُ مالك لا يقف ولا يسمع أنكر أمرهُ وعلم أنهُ قد انخدع وقال ليس هذا الفرس من خيل قضاعة وتالله أخشى أن يكون فارسه كليب وائل وهذا الفرس أبوهُ من خيلنا وأمهُ من خيل بنى شيبان ولعله الشبوب بنت جافل. فخاف مالك وانذعر وارتد إلى الوراء وتأَخَّر وفقد كليبٌ وقع الفرس فثنى إليهِ عنان فرسهِ وقال لعلك أدركت للإبل حسًّا قال لا ولكن تنبهَّت بالشبوب وصوَّرت بين عينى كليبًا الأسد الوثوب قال أنا والله هو فاحذر لنفسك وحمل عليهِ وقال يا مالك أين رمحك الذى أرخى وركَى كليب حتى سلح فى سرجهِ ثم أنزلهُ عن جوادهِ وجعل عمامتهُ فى عنقهِ وراح بهِ أسيرًا وترك جوادهُ لرجع إلى قومهِ ولما وصل الجواد إليهم فى ليلتهِ أيقنوا أن مالكًا قد قتل وأن الذى دعاهُ وائلى فصاحوا فى الناس بالغارة وقصدوا إلى طى وقضاعة وأما كليب فإنهُ جاز بأسيرهِ إلى آخر ليلتهِ حتى أضاءَ عليهِ الصباح وإذا بهِ ينظر عجاج الخيل فعلم أنها خيل قومهِ وكان أخواهُ نويرة والمهلهل قد افتقداهُ وأخبرا البرَّاق فعلم أنهُ يريد بالفرس أن يهجم على مالك فى دارِ قومهِ فشد فرسهُ وصاح بالغارة فشدوا وأغاروا يلتمسون كليبًا فعند ذلك خلى كليب سبيل مالك وقال ارجع إلى قومك وأخبرهم إنما أضرمتها أنت وتولى حرَّها غيرك فرجع مالك وأخبر فومه بالذى كان من كليب وأنذرهم بالخيل فاستحوا من الرجوع ثم التقى القوم فاقتتلوا قتالًا شديدًا إلى آخر النهار وافترقوا بعد قتل وجراح فلما كان فى اليوم الثانى برز عامر بن الذعير ونادى ببراز كليب فبرز إليه فالتقى الرجلان واقتتلا ساعةً طويلةً حتى عجب الناس من إقدامهما وامتناعهما وعجل بنو الذعير فحملت أخوة مالك على كليب وهم ستة شتر من واحدةٍ وستةٌ من أخرى ولما حملوا على كليب حمل ربيعة بن مرة وولداهُ نويرة والمهلهل ولكيز وأولادهُ على بنى الذعير

وحمل القوم من الطرفين واطَّردت خيل بنى الذهير والجديليين وخيل بنى مرة والأراقم واعتركوا مليًّا ولما وقع الطراد حمل خزيمة على مالك بن الذعير فأرداهُ جريحًا واستنقذتهُ إخوتهُ حتى أعادوهُ إلى متن جوادهِ وحمل نويرة على جرَّاح بن الذعير قطعنهُ فأرادهُ قتيلًا وحمل وحمل مروان بن الذعير على لكيز بن مرة أبو ليلى فأرداه بطعنةٍ فاستنقذهُ أخوهُ ربيعة وابنهُ كليب حتى استوى على جوادهِ وحمل عمَّار بن الذعير على المهلهل فأرداهُ صريعًا فاستنقذهُ أخوهُ نويرة وابن عمهِ خزيمة بن لكيز حتى استوى على جوادهِ وحملت خيل بنى جديلة وخيل الأراقم فاقتتلوا ساعةً طويلةً وحمل نويرة على الحارث بن الذعير فأرادهُ قتيلًا واشتعلت الحرب بين الحيين واقتتلوا قتالًا شديدًا وبرز الحارث بن عبَّاد ونادى بالراز فبرز إليه الصامت السدوسى فاختلف بينهما ضربتان وكان السابق فيهما الحارث فأرداهُ قتيلًا ونادى بالراز فبرز إليهِ أخو المقتول ياس وكان أشجع من أخيهِ فاعتركا ساعةً ثم أتبعهُ الحارث بأخيهِ وتواترت خيل سدوس على الحارث بن عباد وهم عشرون فارسًا فأهلكهم بالبراز وكانوا أشدَّ سدوس وحمل السواد على السواد واقتتلوا حتى كادت الشمس تغيب فبرز عمرو بن لهيم الطائى جد البرَّاق لأمِّهِ ونادى ببراز روحان بن أسد إليه فبرز وقال يا عمرو أما كفاك ما ترى بين الحيين حتى تدعو ببرازى خاصةً تم حمل كل واحدٍ منهما على صاحبهِ فاختلفت بينهما طعنتان كان السابق فيهما روحان فأرداهُ جريحًا وحملت أولادهُ كافةً على صهرهم فأشرعوا إليه الرماح وكان درعهُ متينًا لا تنفذه الأسنة فألقوهُ على وجه الأرض فعندها حمل البرَّاق وإخوتهُ فأخذوا أباهم روحان وحملوا جدهم عمرًا على جوادهِ وردوهُ على أولادِ سالمًا وكان ظليل بن روحان قد أُصيب بطعنةٍ كانت منيّتهُ بها فلما علم البرَّاق أن أخاهُ لا ينجو من لك الطعنة برز بين الصفين وقال يا بنى عمرو أما والله لقد فجعتم أختكم بقتل ولدها ولا تبرد فدعتها إلَّا بقتل كفوهِ منكم ثم نادى ببراز خالهِ مصعب بن عمرو بن لهيم فبرز وحمل عليه البرَّاق حملةً منكرة فأرداهُ قتيلًا واقتتل القوم يومهم قتالًا شديدًا إلى أن حجز بينهم الليل وقال نصر يرثى أخاهُ مصعبًا:

عـين جـودى بـدمعٍ منـك يجـرى للفتى فـارس الـسدوس ابـن عمـرٍو

فـــارس الحجفلـــين منـــا ومـــنكم ... ومنيـــع الـــذمام فـــى كـــل عـــصرِ
كنـــت فـــى رقـــدةٍ فـــأيقظنى الآ ... نَ مـصاب الفِتـى شـقيقى وذخـري
إن بـــرَّاق قـــد بـــدانى جهـــارًا ... بقتيـــل سميـــدعٍ غـــير عمـــر
شمّـــروا للحـــرب آلَ لهـــيمٍ ... يـا أبـا النـصر سـوف تعـرف نـصري
بـــسدوسٍ جميعهـــا وجـــديلٍ ... ســترى الــذل فــى صــناديد بكــر
أَرفـــت للطعـــان عينـــى رويـــدًا ... ســيعود الكــرى وأقــضى وتــري
ويـــرى الـــوائلى منـــا طعانًـــا ... وضـــرابًا كمثـــل إضـــرام جمـــر
مـــن جـــديل وال جـــرَّاح قـــومي ... وســـدوسٍ وســـنبس آل نـــصر
ســوف تأتيــك كــالمراعى ســراعًا ... فـى دجـى الليـل أو بـساطع فجـر
وعلـــى الوفـــا لقـــولى وعهـــدى ... وتـــرى فـــيهمِ تمامًـــا لنـــذري

فأجابهُ البرَّاق راثيًا أخاهُ ظليلًا:

عـــينٌ تجـــود وقلـــبٌ والـــهٌ كَمِـــدٌ ... لما ثوى فى الثرى الضرغامة الأسدُ
غاب الكرى وتقضى النوم وانصرفت ... حبـل التواصـل لمـا أن دنـا الـسهد
يـا عـين أن تـدمعى لا تقتفـى ولهـا ... إن الـــشفاءَ جيـــاد الخيـــل تطَّـــرِد
فتلـك فيهـا عـزاءٌ عـن أخـى ولكـم ... فيهـا العـزاءُ ومـنكم يـنقص العـدد
فـإن تـسيروا إلينـا مـن حبـايلكم ... وإن وقفـتم فإنَّـا نحـوكم نـرد
ولـست أحـتم أنـى غالـبٌ كلُـمُ ... والله يعلـم بالإنـسان مـا الأَمـد
وكـل حـى يقـضى بعـض حاجتـهِ ... فـى تلـك والـدهر لا يبقـى بـهِ أحـد
عجُـل نـصير لنقـضى بعـض حاجتنـا ... وإن وقفـت فهـذه خيلنـا تفـد
وأقـدم بخيلـك هـذه خيلنـا صـفنٌ ... شـعثاءُ تنـزعُ عـن أقطابهـا اللبـد
فـإن تـسيروا إلينـا ترفـدوا عجلًـا ... ضـربًا يظـلُّ علـى هامـاتكم يقـد

وإن وقفتم فإنا سايرون لكم يا آل خالى بجرد الخيل تنجرد

قال صاحب الحديث واجتمع الكل بعد ذلك وصار بعضهم على بعضٍ والتقوا بدومة وهى على حدود بلاد أنمار واقتتلوا قتالًا شديدًا وبرز صير بن عمرو ونادى ببراز البراق فأجابهُ وكانا كفوين كريمين فتحاملا ساعةً ولم يظفر أحدهما بالآخر وحملت أخوة نصير على البرَّاق وحملت أخوة البرَّاق حوله والتقى سالم بن روحان وغرسان بن عمرو بن لهيم الطائى واتفقت بينهما ضربتان فوقع سيف غرسان على سيف سالم فقطعهُ نصفين وحملت خيل بنى فرفص وهم سبعون فارسًا وحملت خيل بنى أسد واطردت الخيل وتكافح نصير والأحجف وتضاربا بالسيوف فسبقهُ نصير بضربةٍ أرداه بها قتيلًا فحمل البرَّاق على الأهمس ابن عم نصير فقتله بابن عمهِ الأحجف وحمل السواد على السواد واقتتلوا قتالًا شديدًا وراح الكل منهم على غير غلبة ثم أن نصيرًا جمع بنى طى وقضاعة وغزا بهم ديار ربيعة وتطرقت خيله إلى محلّ رجلٍ من بنى جشم وأخذت إبلًا فارتفع الصراخ وشدَّت قبايل ربيعة خيلها وأغارت خلف الإبل وكان أول من لحق القوم البرَّاق وإخوتهُ فاسترجعوا الإبل من نصير وقومهِ بعد قتلٍ وجراحٍ وجاءَت كتائب وائل مثل كراديس النمل والتقت الخيل واقتتلوا قتالًا شديدًا ثم افترقوا على غير غلبة ❋

قال الراوى وإن البرَاق بعد هذه الوقعة تجهز للحج وتخلف مكانه على قبايل ربيعة كليب فلما سمع نصير بن شبيب خال البرَّاق بنهوض البرَّاق إلى الحجِ وغيابهِ عن قومهِ وشاع ذلك فى أحياءِ طى اجتمع بأكابر قومهِ وأقبلوا عليهِ يحثونهُ وقالوا يا نصير اغتنم الفرصة فى بيوت ربيعة بعد أن غاب فارسهم وسيدهم فإنهُ لا يمكنك فرصةٌ مثلها فقال واسوءَتاهُ تأمرونى أن أغتاب البرَّاق وأخلفهُ فى مومِه شرَّ خلافةٍ فإننى لا افعل ذلك ابدًا ولا أسنّ عادة قبيحة فى العرب وكانت أمهُ كثيرًا ما تعيرهُ بقتل ولدها وتحثّهُ على حرب ربيعة بعد البرَّاق وهو يمتنع عن ذلك ويقول والله لو كنت أنا الغائب ما سمع البرَّاق فى كلامًا ولا غزا أحدًا من قومى وإنما تريدون أن تكسونى العار ولست أحمل كلامًا ولا أخلفهُ إلا خلافةً حسنة فلما رأت إصراره على

مخالفتهِ لها مالت إلى كيد النساءِ وقالت والله لا أكيدنَّهُ مكيدةً يكون فيها انحطاط قدره بين الناس وهو لا يشعر بها ثم إنها استحضرت بجاريةٍ لها وكانت عذرا وشدت لها على جملٍ سرًّا عن ولدها وقالت لها تقدمى نحو قبايل ربيعة ثم ارجعى فإذا كنتِ بحيث يسمع الداعى فصيحى واصرخى بأعلى صوتكِ ولا تشكى لمن لقيكِ حتى ترى مولاكِ نصيرًا فإذا قال مالكِ فقولى لهُ ركبت لزيارة مولاتى كريمة فلقينى المهلهل واستنزلنى عن جملى وفضحنى وهتك سترى وقال امضى واعلمى مولاكِ نصيرًا وقولى له لنصنعنَّ بأمهِ مثلما صنعنا بكِ ولا سلمت له بعد اليوم حرمةٌ فإنهُ قد توقَّف عن حربنا خوفًا وفزعًا واطمع العرب فى قومهِ وإذا علم مولاكِ ذلك فإنهُ سيأنف منهُ ويغير على المهلهل وإخوتهِ وتكون النكاية فيهم أشدَّ وأعظم فامتثلت الجارية كلامها ومضت ثم جاءَت واستقبلت القوم وصرخت فجاءَتها الغارات من كل جانبٍ ولم تخبر بشيءٍ حتى جاءَ مولاها فأنشأَت الزور والبهتان على المهلهل فغضب نصير لذلك غضبًا شديدًا وقال إذا كان ذلك منهم ركبت عليهم وسببت حريمهم وفضحتهم أشدَّ الفضيحة وأغار من ساعته على الأراقم وكانت قد اجتمعت إليهِ خيلٌ من طى وقضاعة فتقدم صرم بن شبيب فى أول العسكر وهو يقول:

هلـمَّ إلى الثـارات مـن آل أرقـمٍ ... وقتـل كليـبٍ ثـم قتـل المهلـهلِ

متـى نظـرت عينـى كليبًـا أجبتـهُ ... علـى فعلـهِ مـن حـدٍّ أبـيض فيـصل

وسار نصير بطى وقضاعة وصبح بهم الأراقم رهط كليب فاقتطعوا من أموالهم وسبوا نساءَهموكانت فيهنَّ ليلى العفيفة صاحبة البرَّاق ثم أن الصراخ ارتفع فى قبايل ربيعة من كل فجٍ عميق فركبت الفرسان ظهور الخيل وأغار نويرة فى جماعة من الأبطال فى أثر المال والحريم وكليب فى آخر الخيل وكان البرَّاق قد رجع من الحجّ فى تلك الأيام وكان قد اعتراه مرضٌ فى أثناء الطرى من فرط حبه بليلى وشوقه إليها حتى ضعف عن الركوب للمرض والتعب وقلَّ أكله وشربهُ فوصل إلى أهلهِ وقد زاد مرضهُ حتى كاد لا يستطيع الركوب وإذا بهِ يسمع الخبر. فانذهل وتحير والتهب

فؤاده وتحسر. وأمر بشد جواده ولبس لأمة حربهِ وجلاده. وركب من تلك الساعة وأغار على آل طى وقضاعة وهو يقول:

لأَفــرجنَّ اليــوم كــلَّ الغمــمِ ... مـن سبيهم فى الفجر بيض الحرمِ
صــبرًا إلى مــا ينظــرون قــدمي ... إنــى أنــا الــبرَّاق فــوق الأدهــم
لأُرجعــنَّ اليــوم ذات المبــسم ... الواضــح المنــضَّد المنــتظم
بنــت لكيــز الــوائلى الأرقــم

قال وترامى جواد البرَّاق فى عنانهِ حتى أدرك القوم وقد افترقو عن قتل وجراح فنادى فى قومهِ فأتوا إليه وأحاطوا بهِ وداروا من حواليه ثم نادى يا كليب استقم بمن معك من الفرسان وأنا أحمل بمن معى خلف المال والنسوان فاستقام كليب ومن معه وحمل البرَّاق وإخوته وبنو عمهِ وسائر قومهِ على طرفٍ من الخيل واشتغل نصير بأواخر الخيل يقاتل كليبًا ومهن معهُ ثم إن البرَّاق أدرك المال والسبايا وكان معها أربعة آلاف عنان ونويرة مشغل بهم فحمل عليهم البرَّاق وقتل كثيرًا من أبطالهم. واسترجع ظعائن قومهِ وأموالهم وأمر من يسير بها إلى منازلهم وإطلالهم وذلك من بعد ما سلَّم على ليلى وهنَّاها. وشاهد حسنها وسناها ثم أغار حتى لحق بكليب وعشائرهِ فوافق الجندين مفترقين فى تلك البطاح وبعض الخيل تطَّرد بالرماح وتأَمَّل وإذا بلكيز وشبيب صهرهِ قد تنازلا بالسيوف وصرم بن شبيب قريبٌ منهما ينتظر غفلةً من لكيز فنادى بأخيهِ وإذا بهِ قد أقبل وحمل على شبيب فطعنهُ أرداه قتيلًا ثم إن أخوة شبيب ثبتوا وتشجعوا ولم يولوا ويرجعوا ولما رأى البرَّاق صبر أخواله وما فقد منهم من البطال وكثرة الجموع أشفق عليهم وتنحَّى وكفَّ فرسهُ وأمر رهطهُ وسائر قومهِ بالرجوع فلما رأى نويرة ذلك أقبل على البراق وقال أتريد أن تبقى على صناديد طى وقد اغتابوك فى قومك ولم يراعوا لك ذمةً ولم يرحمونا وقتلوا رجالنا وأخذوا أموالنا وسبوا حريمنا وعيالنا فأنف البراق من كلام نويرة وحافظ نصير بمن معهُ من المقاتلة بقيَّة يومهِ حتى حجز بينهم الليل وافترق القوم عن ضربٍ شديد.

قال ثم إن نصيرًا أغار من ليلتهِ وقصد قومًا من بنى ذهل فقتل منهم رجالًا كثيرة واستأسر منهم الأفرس ومالك أولاد سمير وانصرف إلى أهله وعند صولهِ فك أسيريهِ وجهزهما جهازًا حسنًا ومنَّ عليهما بنفسيهما وانصرفا فلهما جاوزا بعض الطريق إذا هما بالبرَّاق فى غارةٍ من قومهِ وذلك أن البرَّاق لما بلغهُ ما فعل نصيرا فى بنى ذهل غضب غضبًا شديدًا وقال ألم يكفهِ اغتيابى فى قومى وأغارتهِ عليهم بعدى حتى يغير على بنى ذهل فى ظلام الليل ويقتل منهم ويستأسر أما كان لهم أذنٌ واعيةٌ عندما أحاطت بهم خيل وائل وضيقت عليهم فكفيتها عنهم شفقةً منى وحلةً للرحم.

قال ثم إن الرجلين دلَّاهُ على حلةٍ من حلل طى كانت تلك الجوار فوجه البرَّاق إليها بقومهِ فقتلوا منهم رجالًا واسروا وانصرفوا فلما كان فى بعض الطريق أمر البرَّاق بإعتاق الأسرى وقال لهم لم تكن لى بذلك إرادةٌ إلَّا إذا فعل قومكم فعلةً جازيناهم بمثلها ثم إن البرَّاق جمع قومهُ وأغار على أخوالهِ وكان قد حنق على نصير حنقًا شديدًا لاغتيابهِ لهُ فلما كانَ فى بعض الطريق فتدب من بيوت بنى عجل وجشم والنمر وتغلب جماعة وجعل عليهم نويرة بن ربيعة وقال كن أنت من خلف على مسافةٍ منا فربما تكون الدائرة علينا فتعطفون ولا يفوتكم مهربٌ وسار البرَّاق بجموع ربيعة فلقيتهم جموع طى ومقدمهم نصير فالتقى الجمع بالجمع واقتتلوا قتالًا شديدًا فانهزمت خيل ربيعة فعطف عليها نويرة ومن معهُ من أبطال الحرب واختلف الطعن والضرب والتحم القوم بالقوم فى لك السهول وتطاعنوا بالرماح والنصول حتى ذهلت العقول وكاد الرجل منهم يضرب صاحبه وهو لا يعرفه من ازدحام الموكب. وكثرة الطلايع والكتايب هذا وقد وقع الخوف فى قلوب الرجال من هول ما أبصرت. وكَلت الخيل من كثرة المعاركة وقصَّرت وقاتل البرَّاق فى ذلك اليوم القتال الهائل وأهلك بسيفهش كل بطلٍ حلاحل وما زال القوم فى قتال وصدام. وعراك والتزام إلى أن ولت جموع طى وقضاعة وطلبت الفرار من تلك الساعة فلحقتها عساكر ربيعة وفى أوايلها كليب والمهلهل. وكان يومًا عظيمًا على الأعداءَ لم يسمع بمثلهِ فى الزمان الأول. وقد تمزَّق جمعهم وتفرقوا فى تلك البرارى

والقيعان. وتخلوا عن الأموال والنسوان فأخذتها ربيعة ولم تترك لهم امرأةً ولا عبدًا ولا مالا ولا أمةٍ ولا شاةً ولا عقالا ثم إنهم بعد ذلك انصرفوا طالبين الديار. وهم فى غاية الفرح والاستبشار.

قال فلما كانوا فى أثناءِ الطريق استحى البرَّاق من حريم أخوالهِ واعتذر إليهنَّ وردهنَّ إلى أهلهنَّ وردَّ المال معهنَّ وقال أبلغوا آل لهيم. ومن جاورهم من سادات تلك الأقاليم أننى لم يكن لى إرادةٌ بما كان ولكن أردت أن أجازيهم بمثل ما فعلوا فى حقى من الاحتقار والهوان فلما بلغهم كلامه وجاءَت إليهم نساؤُهم وأموالهم شكروهُ على ذلك الصنيع وأقروا لهُ بالفضل والشرف الرفيع وانصرمت الفتنة بينهُ وبين أخوالهِ وخلَّانه واصطلحوا وتصافوا ووفدوا عليهِ فأكرمهم ووفد عليهم فأكرموهُ وعظموا شأنه.

قال ابن نافع وإن البرَّاق بعد انصراف الناس من عنده وخلوّهِ بنفسهِ اشتد بهِ حب ليلى وعظم عليهِ الحال حتى لزم بيتهُ وامتنع عن الخروج وهو كاتم سرهُ لا يبوح بهِ على أحدٍ إلَّا إلى كليب وكان كليب قد أنكر غيبة البرَّاق فزارهُ على منزلهِ فوجده فى حالٍ ضعيفةٍ فشقَّ عليه ذلك وأخذ يتلطف بخاطرهِ ويسليهِ على ما هو فيهِ ثم خرج من عندهِ واجتمع بعمهِ لكيز بن مرة وقال يا عم مالك لا ترجع عما فى نفسك وتزوّج البرَّاق بليلى فهو أحقُّ من غيره فقال لكيز وأفضيحتاه كيف يكون ذلك أتأخذون هدية الملك وتعدونهُ بالزواج ثمّ لكيز على ابن أخيهِّ بكلامٍ فاحش فقال كليب والله لين لم توافق البرَّاق على مرادهِ وتزوجهُ بليلى لأبلغنَّهُ ما فى نفسهِ * ثم أتى إلى البرَّاق وقال لهُ هل لك أن تَدَع رأى لكيز وتتزوَّج بليلى قال يا كليب إن ذلك غاية قصدى ومرادي. وفيه مسرَّة فؤادي. ولكن كيف يمكن الحصول على هذا المر بعدما قسمتم هدية الملك عمرو ثم تنفس الصعداءَ وأنشد من كبد حرَّا.

الصبر أحزم من بعض الأقاويلِ ... ومن فظايع هاتيك الأفاعيل

إنى وإن كنت أصبحت الغداة بها ... أشقى أسيرٍ بقيد الحب مغلول

فليس عندى وفاءَ العهد منتزعًا حتى أوسد خمسات الأناميل
ماذا تقول سراة الحى من مضرٍ إذا ربيعة فاضت بالأباطيل

ثم قال يا كليب مالى عنها صبر ولا سلوان لأنها نتيجة عصرها وفريدة هذا الزمان ثم جاش بهِ حب ليلى فعظم عليه المر وعدم الصبر وكثر غشيانه فأشفق عليه أهله وخلانه فدعا كليب أبا البرَّاق مع إخوته وطلب منهم أن يكونوا عوانًا لهُ على مصيبتهِ فقال لهم أبوهم روحان يا أولادى التمسوا ما يكون لأخيكم فيه النجاح وبلوغ الآمال فتكلم ولدهُ جنيد وقال:

تقسَّمُ فى أحيا ربيعة تحفةٌ وتبغى سديد الرأى يا لك من فكرر
تقطعت الأنساب منها إلى أخي مخافة ذمٍ دايمٍ أَبدَ الدهر
تجير أبا عمرٍو فإنك مخبرٌ وصرّح بما أحببتهُ فى أبى النصر
أبو النصر نصرٌ فيه أى معونةٍ وأى صلاحٍ والأنام بهِ تدري

ثم تكلم أخوهُ نصير وأنشأ يقول:

لحى الله الوفاءَ وكل قومٍ يريدون الوفاءَ على الهلاكِ
أفيضوا باللقاح إلى لكيزٍ يرتعهنَّ فى وادى الآراك
يبيح لبانها ويشد باعًا قويًا للضراب وللصكاك
فإن يقبل مشورتنا قبلنا وإلا فالمعادُ إلى المحاك
تريدون المكارم آل قومي وكيف الفعل من بعد الشراك

ثم تكلم غرسان وأنشأ يقول:

لكل امرءٍ رأى لهُ ومشورةٌ وحنتهُ فى ما يشا ويشيرُ
وما من فتى إلَّا لهُ من أمورهِ مقاصدُ فيها لا يزال يسير
فإن يرد البرَّاق شيئًا فإننا نسارع فى ما يشتهى ونطير

وإن لم يَـرِدْ شـيئًا فمـا بعـد قـولكم وهـا هـو فـيكم حـاكمٌ وأمـير

فالتفت روحان إلى كليب وقال لا تفارق البرَّاق ولا تترك زيارته إلى أن نرى ما يكون * وشاع خبر البراق فى بنى وائل * وتحدثت فيه سادات القبائل * فاجتمعوا وأقبلوا على لكيز ووبخوهُ بالكلام وأكثروا عليه العتب والملام وقالوا لا عذر لك من أن لا تزوج البرَّاق بليلى لأنهُ ابن عمها وهو أحق بها من غيرهِ وأولى وإن فى ذلك علو شأنك ورفعة قدرك ومكانك فأى فخر يكون لك أعظم من هذا إذا أصبح البرَّاق صهرك وأهل العشيرة أنصارك وطائعين أمرك وكيف لا يكون ذلك وهو عين هذا العصر ومنتهى الشرف والفخر وقد قرت له جميع الناس بالفصاحة وحسن الشيم والمروة وعلو الهمم واشتهر بالفروسية والكرم كاشتهار العلم حتى ساد وتقدم على سادات العرب والعجم ولولاه لم يكن لنا اسم يذكر وكنا افتضحنا وصرنا مثلًا عند عرب البر الأقفر وإن كنت تفتخر بمصاهرة عمرو بن ذى صهبان وتفضله على ابن أخيك كونه ملك من ملوك هذا الزمان فلا يغرنك سلطانه. وعظمته ومكانه. فإن ابنتك ما تكون عنده إلَّا كمثل بعض الخدام وهو لا يعرف لك قدرٌ ولا مقام وتكون قد ضبعت مثل هذا البطل الهمام والسد الضرغام *

قال فلما سمع لكيز كلامه قال هذا أمر فات لم أقدر عليه يعد ما أنعمت على الملك بزواجها فاستشاطوا غضبًا من كلامه وتركوه وآلت ربيعة على مقاطعة لكيز أبدًا ثم إن لكيز تجهَّز من يومه وسار بأهل بيته قاصدًا الملك عمرو بن ذى صهبان على أن أقبل على نعيم بن مهلة الأزدى وهو فى حدود الملك عمرو وكان صديقًا لهُ فأنزلهُ وأكرمهُ وبقى عندهُ أيامًا *

قال وأعجب ما اتفق إن رجلًا من أشراف بنى أنمار يقال لهُ كريم ابن الأعرج كان متوجهًا على شَهْرَمَيه ملك الفرس فجات طريقه على حلة نعيم المذكور وكان قد أمسى عليه المسا فقصد دار نعيم ونزل عنده للمبيت تلك الليلة وكانت قبايل أنمار وإياد فى جوار الملك شهرميه وكان يستعين بهم على خدمتهِ فى بعض الأحوال فاشتغل نعيم تلك الليلة بلكيز وأهل بيتهِ ولم يلتفت على كريم ابن الأعرج فلما

أصبح القوم سألوا نعيمًا ما الذى أشغلهُ عنهم فقال عندى رجلٌ من ربيعة وأخبرهم بهِ وقص عليهم قصتهِ وكان النمارى قد سمع عن ليلى بوصفٍ كثير من المحاسن والجمال فقال والله لا جئيت الملك شهرميه بأحسن من هذه التحفة ثم شدَّ وركب راحلتهُ وأسرع فى سيرهِ حتى قدم على مدينة الملك واستأذن الحاجب فى الدخول عليه لأمرٍ ضرورى وصار الحاجب على الملك فاعلمهُ فقال أدخله إلى قاعة السر فأدخله على خلوة سره وأمر لهُ بالشراب إليه ثم دعا بوزيرهِ برد بن طريح الأيادى فلما حضر حدثهُ بخبر الأعرابى فدخل عليه برد واستنطقهُ فتكلم بما عندهُ ووصف لهُ عن ليلى وحسنها فقال برد وكيف الرأى فى تحصيلها فقال يكتب الملك إلى عاملهِ عمرو بن ذى صهبان أمرًا بوصولها إليه فقال أحسنت وخرج على الملك فأخبره بذلك فتبسم ضاحكًا وكان حكيمًا حاذقًا يشتهى نظر الحسان ثم إنهُ كتب من وقته على الملك عمرو كتابًا يطلب منهُ تجهيز ليلى وإرسالها إليه فى أسرع ما يكون فلما وقف عمر على كتاب الملك ضاق صدره وحار فى أمره لأنهُ كان يحبها ويتمناها لنفسه فأرسل إليه يقول أنى أوافقك على ذلك غير أنى لا أعلم هل يوافق أهلها على مصاهرة لملك أم تكره العرب مصاهرة العجم ولكننى سأبذل فى ذلك غاية اجتهادى ولما وقف الملك شهرميه على هذا الخطاب جدد المواثيق فى خطبة ليلى وأرسل كريم المذكور مع أخوى وزيرهِ يرد بن طريح الأيادى فلما حضر حدثهُ بخبر الأعرابى فدخل عليه برد واستنطقهُ فتكلم بما عندهُ ووصف لهُ عن ليلى وحسنها فقال يرد وكيف الرأى فى تحصيلها فقال يكتب الملك إلى عاملهِ عمرو بن ذى صهبان أمرًا بوصولها إليه فقال أحسنت وخرج إلى الملك فأخبره بذلك فتبسم ضاحكًا وكان حكيمًا حاذقًا يشتهى نظر الحسان ثم إنهُ كتب فى وقته على الملك عمرو كتابًا يطلب منهُ تجهيز ليلى وإرسالها إليه فى أسرع ما يكون فلما وقف عمر على كتاب الملك ضاق صدره وحار فى أمره لنهُ كان يحبها ويتمناها لنفسه فأرسل إليه يقول إنى أوافقك على ذلك غير أنى لا أعلم هل يوافق أهلها على مصاهرة الملك أم تكره العرب مصاهرة العجم ولكننى سأبذل فى ذلك غاية اجتهادى ولما وقف الملك شهرميه على هذا

الخطاب جدد المواثيق فى خطبة ليلى وأرسل كريم المذكور مع أخوى وزيرهِ برد وهما الربيع والحُنَيش ابنى طريح بجيشٍ عظيم وأمرهما أن يخطبا له ليلى فإن امتنع أهلها وتحدَت ربيعة لهم يقتلون الرجال ويسبون الحريم ويأتونهُ بليلى سبيَّةً فامتثلوا وساروا إلى أن وصلوا إلى حلة نعيم الأزدى التى فيها ليلى ونزلوا عليه وكان عمرو بن ذى صهبان قد جدَّد خطبة ليلى على الملك شهرميه واستشار أبوها لكيز فى ذلك فأبى وقال إما بكفيك أنى هجرت قومى وهجرونى ومنعتها عن سيد العرب البرَّاق بن روحان لجلك ووقفت عند قولى وأنعامى بها لك حتى نرفع خبرها إلى ملك الفرس وتريد تزويجها بمن لا يوافقها. ذلك لا يكون وإما أنت فلنا عذرٌ الآن بامتناعنا عنك أيضًا نظرًا لما ظهر منكض وقد بطَّلت الخطبة عن كليكما فأخذ عمرو يعتذر غليهِ بأن ليس لهُ من ذلك خبر وإنما السبب فيهِ كريم الأنمارى وهو الذى رفع خبرها إلى الملك شهرميه حتى كان ما كان فقال لكيز أما أنت فقد بلغنا من لدنك معذرة ولم يبقَ لك حقٌ علينا وأما هؤلاءِ فلا أهلًا ولا سهلًا بهم قال وفى أثناءِ ذلك وصل الربيع والحَنَيش بمن معهما من العسكر إلى حلة نعيم كما تقدم الكلام ولما بلغهما جواب لكيز لعمر وامتناعه عن زواج ليلى إلى الملك شهرميه استشاطا غضبًا وأمرا العساكر بالهجوم على دار نعيم بن مهلة واستخرجا ليلى قوةً واقتدارًا فعند ذلك ركب لكيز وأولاده وجارهم نعيم بن مهلة بقومهِ وكان يركب فى خمسماية فارس وانتشبت الحرب بين القوم واشتدَّ القتال فاستظهرت أصحاب الملك شهرميه وحلَّوا الموال وسبوا النساءَ وفيهنَّ ليلى العفيفة وكان لكيز قد حمل هو وأولاده ونعيم وأولاده وفرسانٌ من قومهِ فقتلوا الحُنَيش بن طريح وقتل خزيمة بن لكيز أخو ليلى وقتل كريم بن الأعرج الذى كان السبب فى هذا المر وانجرح لكيز وبأنهُ عقيل وسار الجند بالأموال والسبايا ❋

قال فتقدم الربيع بن طريح وسأل عن ليلى فدلتهُ بعض النساءَ عليها فتقدم إليها فوجدها تبكى وتنوح على ما حلَّ بها وأصابها من الهوان فأخذ يعتذر لها ويتطلف بخاطرها وشد لها بنفسهِ على جملٍ من نجائب الإبل وأناخهُ قريبًا منها وأولاها ظهرهُ كرامةً ووقارًا وقال إنهُ لم يهن علىَّ ما جرى ولا كنت أريد هذا وغنهُ عليّض لأشدُّ

المكروه وإنما كان السبب فيهِ كريم بن الأعرج وقد كان جزاءَهُ ما كان فرُبَّ حافر حفرةٍ وقع فيها فذهبت مثلًا وركبت ليلى ودموعها تنحدر على صدرها ثم أطلق الربيع بقيَّة النساءِ وجميع الأموال وقال هذه حاجة الملك وتوجه بها إلى ديار فارس وأنشأ يقول:

دعـــانى للقطيعـــة منـــهُ بـــردٌ	وبـــــردٌ عنـــــدنا أى المطـــــاعِ
وكنـــا فـــى النمـــوّ وفـــى المعـــالي	فـصرنا اليـوم مـن سـقط المتـاع
ومـــا كانـــت قبائـــل آل طـــيٍّ	وتغلـــب تـــستعيذ مـــن القـــراع
ولكـــن فـــى لكيـــزِ شـــرَّ فعـــلٍ	فعلنـــا وهـــو محمـــود الطبـــاع
وفـــى الـــبرَّاق والـــساعى كليـــبٍ	كـــذا ونـــويرة الحـــامى الربـــاع

قال ثم إن الربيع جد فى مسيرهِ حتى قرب من مدينة الملك شهرميه فأرسل إلى أخيه برد يهنيه بالظفر ويعزيهِ بأخيه فدخل برد على الملك وقال له فى هذه الليلة تكون ليلى فى دارك وقد أمرت بإصلاح شأنها أفا رفعها إليك أم أخلى لها خلوةً فى دارى وتركب إليها أنت فقال إن الأوفق تبقى فى بيتك أيامًا حتى ترتاح من تعب الطريق ولربما أنها لا ترضى وأنا لا أغضبها على نفسها فتأَنَّ فى أمرك ولا تعجل ثم أمر له بعطيةٍ جزيلة فخرج من عنده وأخذ معه غلمان الملك لجل لقاها فلما قدمت سار بها إلى دارهِ وأمر أهلهُ بإكرامها. وحفظ مقامها. وقص عليهم قصتها بتمامها وطلب منهم أن يزينوها بأحسن المصاغ ويلبسوها أحسن الملبوس فقامت زوجته وأخذتها من يدها وأدخلتها إلى غرفة صغيرة قد أعدتها لها ثم جاءَت بعد قليل إلى زوجها وقالت له هيهات أين منك هذا الحديث أو كان الملك يرغب فى معاشرة الموتى فإنها فى حالة لا توصف من شدة الحزن وقد منعتنا نظرها وهى لا تعى على أحد فاغتم لذلك وقال إن أرادت السلامة ورفعة المقام فعليها أن تسمع وتطيع وإلا فلأعذبنها العذاب الشنيع ثم قام ودخل عليها فى غرفتها وتهددها ورغبها فى الملك وشوَّقها إلى نعيمه فلما أكثر عليها الكلام تذكرت المعاهد والطول وتنهدت من فؤادٍ متبول وأنشأَت تقول:

اصبر ستجزى الذى أسفلت من ... بما فعلتَ بلا رَيثٍ ولأمهل
هل مخبرٌ لى برَّاقًا وإخوتهُ ... أُسدَ العرين أُولى الغارات بالأسل
صنعَ الأيادى شرّ الناس كلهمِ ... هيهات برَّاقُ عنى اليوم فى شغل
لا تخذلوا لى لكيزًا يا بنى أسدٍ ... واستصعبوا مضرًا يأتون فى عجل

فقال برد لِمَ جعلتِ الأيادى شر الناس وأنتِ تعلمين أنى منتسبٌ إلى شيبان وإياد فقالت وكيف لا يكون ذلك وأنشأت تقول:

لو كنت منتسبًا إلى شيبانِ ... لحفظت فرعهم بكل لسانِ
وعرضت عن فعل الخناءِ أخا الخنا ... وغضضت طرفًا مستحى الأجفان
لكن خناوءُك فى فنائك لم يزل ... وسلكت طرق منوّر بن عنان
فلك الجزاءُ بكل ما أسلفتهُ ... فى آل وائل من جزاءِ هوان
يالل برَّاق السميدع فى الوغى ... ونويرة العالى على الفرسان
شدّثوا جياد الخيل وابتونى بها ... مشدودةً لتكافح الأقران
وغذا رايت نواصيًا مفروقةً ... من كل جبهة شيظمٍ وحصان
فيها بنو مضرٍ وآلُ ربيعةٍ ... لطعان كل غضنفرٍ مطعان
فأثبت عدمتك من قرينٍ واستقم ... للمشوس من مضرٍ ومن عدنان
لأسود حرب ليس يفشلها اللقا ... بصفايحٍ يمضين كالنيران

قال صاحب الحديث فلما سمع شعرها أنف من قولها فى آخرهِ عد منك من قرين فقال ويحك أبرد بن طريح ابن أتان. أليس إياد وربيعة إخوان قالت صدقت ولكنك يا ابن الفارسية لست لإياد ولو كنت لهم ما رضيت فى حرمة ربيعة هذا الفعل ولكنك زنيمٌ فازداد غيظًا وأمر بها فقيدت وضربت ضربًا إليمًا والملك لا يشعر بشيء من ذلك وسألتهُ زوجته الشفاعة فلم يشفعها فأقبلت عليها وقالت يا أختاه قد بلغتِ فى عرضك عذرًا فأقبلى نصيحتى فليس هذا أوان عفَّةٍ لكن كان لك ذلك لو

كنت فى رجالك وعشيرتك فقالت العذاب أهون على مما يطلبه منى ثم بكت وأنشأت تقول:

ليت البرَّاق علينًا فترى ... ما أقاسى من بلاء وعنا
يا كليبًا يا عقيلًا اخوتي ... يا جنيدًا أسعدونى بالبكا
عُذِّبت اختكُم يا ويلكم ... بغذات النكر صبحًا ومسا
غلّلونى قيدونى واضربوا ملمس ... اللعفَّة منى بالعصا
يكذب الأعجمُ ما يقرُّبني ... ومعى بعض حساسات الحيا
يكذب الأعجمُ ما يقرُبني ... كلَّ ما شيتم جميعًا من بلا
فأنا كارهةٌ بغيتكم ... ومرير الموت عندى قد حلا
أتدلون علينا فارسًا ... يا بنى أنمار يا أهل الخنا
يا إيادٌ خسرت صفقتكم ... ومرى المنظر من برد العمى
يا بنى الأعياص إمَّا تقطعوا ... لبنى عدنان أسباب الرجا
فاصطبارًا وعزاءً حسنًا ... كلُّ نصرٍ بعد ضرٍّ برتجي
قل لعدنانٍ فديتم شمّرا ... لبنى الأعجام تشمير الوحى
واعقدوا الرايات فى أقطارها ... واشتهروا البيض وسروا فى الضحى
يا بنى تغلب سيروا وانصروا ... وذروا الغفلة عنكم والكرى
واحذروا العار على أعقابكم ... وعليكم ما بقيتم فى الورى

قال ابن نافع فلما سمعت امرأة برد بن طريح شعرها رجعت إلى بيتها وأيقنت الفتنة الطويلة وروت الشعر لقينة لها وقالت أنشديه مولاك خير بن طريح فانتهت إليهِ وأنشدته الشعر فقال قبح الله رأى أخى برد. أما كان لهُ كفاية بما أغشانا من العار بتقييدها وضربها أمثلنا من يدلُّ على حريم ربيعة أو يرضى فيهنَّ الفواحش إن ذلك لبئسما فعل وسيذوق ثمرة ما جناه بيده وتاللهِ لقد ألقح علينا حرب ربيعة

وذكرنا وإيَّاهم ما أنسانا وأنساهم الدهر من وقائع وائل مع طى وسدوس. التى أفنت القبائل وشيبت الرُوءُس. وأخلتنا عن أهلنا وبلادنا ونفتنا من ديار آبائنا وأجدادنا فوالله لتأنفنَّ لسبى ليلى صناديد وائل وتغضب لها جميع القبائل من ولد عدنان وسائر العربان ثم إنهُ خرج إلى الملك شهرميه فاستأذن حاجبهُ ودخل عليه وأعلمهُ بفعل أخيهِ مع ليلى وأنشدهُ شعرها بالفارسية فلامهُ الملك لومًا شديدًا وقال لقد كنا فى غنى عنها ولابد عن مسير قومها إلينا ومحاربتهم إيانا ثم أمر لها بدارٍ حسنة ونقلها إليها وأجرى لها من المكارم والنفقات ما لم يجره لغيرها ❊

قال الراوى هذا ما كان من ليلى وأما ما كان من حديث أبيها لكيز فلنهُ بعد سبى ابنتهِ. استحى من الرجوع إلى أهلهِ وعشرتهِ فركب من يومه وأخذ أهله وحريمه وتوجه إلى عمرو بن ذى صهبان وحدثهُ بما جرى وكان وسألهُ النصرة والنجدة فى خلاص ليلى من السبى والشدة وقال إنما أنت كنت السبب فى سبيها ووصولها إلى أرض العجم وتلك البلاد فهل لك أن تمدنى بما تقدر عليهِ من الجيوش والأجناد أو تسير معنا لعلنا نستنقذها دون اطلاع قومنا فإننا فى غنا عنهم. لأنهُ إذا بلغهم ذلك فيشتمون مع ما فعلته من هجرى إياهم ومقاطعتى لهم وإيثارك بليلى دون كل أحدٍ منهم. فقال عمروٌ صدقت إنى كنت السبب فى سبيها إلى بلاد الأعاجم. ولولا مصاهرتى ما خَرَجت من ديارها ولا هجرْتَ قومك وتلك المعالم. غير إنهُ يمنعنى من نصرتك أنى من عمال الملوك الأكاسرة. ولا تليق بى المكاشفة والمظاهرة ولو مددتك بجيشٍ قليل أخفيه عن الملك لم يكن لك فيهُ كفايةٌ ولا تقضى بهِ وطرًا لأن هذا الملك عندهُ جيوشٌ تملأ الفضا طولًا وعرضًا وحولُه من العرب من قومنا وقومكم ما يساوى جنود العجم ثم أنشد وقال ❊

وكــم دون أرض الفــرس مــن آل ... إناســا يجــديون اللقــا والتــصدُّرا
بغـير جنـود العجـم والـشوكة الـتي ... تطــاطى لهــا روس الأنــام تجبُّــرا
ولــو كنــت أقــوى فــضَّ شمــل ... لما كنـت عـن صـهرى أذن متـأخرا
فـإن كـان مـن ابنـا نـزارٍ بـشاشةٌ ... وشمــر بــرَّاقُ الهمــامُ وعــسكرا

وجـــاءَت نـــزارٌ رجلـــها وخيولهـــا ... لـتطعم آلِ الفـرس ضـربًا وعـسكرا
فـإنى سـأوفى مـن خيـولى وفتـنتي ... رجالًـا يـرون القتـل مجـدًا ومفخـرا
فـشمر إلى الأعمـام منـك ابـن مـرةٍ ... ونـــادِ إلى أحلافهـــم متنهـــرا

قال ولما فرغ من شعرهِ قال يا لكيز اذهب إلى قومك واطلبهم للنصرة فإنى أرجو العطف منهم لك واعلم أنهم يأنفون لذلك ويغضبون منه لحق نفوسهم لا لحق نفسك فليلى حرمةٌ من نسايهم وفضيحتها عليهم فإن عزموا على المسير لنصرتك فإنى أمك بما أقدر عليه من خيلٍ ورجالٍ خفيةً فقال لكيز أنا ما أجهل ذلك ولست ممن تأمرهُ بالمسير إلى قومهِ فى طلب المساعدة والمعونة منهم وإنما قصدت النجدة منك أولًا بحيث ما كان منى وهجرى لقومى ورغبتنى فيك دونهم وقد ظننت أن فيك الكفاية لنصرتى فأتيت إليك مستجيرًا دون استعاطفى لقومى وانكسارى لهم وإلَّا فهم نعم القوم يهبون الكريمة ولا يهابون العظيمة نيلهم مبذول وحسامهم مسلول وعدوهم دمه مهطول وأسيرهم لا يفادى إلَّا بالنصول وإننى أرجو أنهم يغفرون زلتى ويرحمونى ويجبرون كسرى وينصرونى وإذا سرت إليهم فلست محتاجًا إليك. وإنما عملت الواجب على وعليك ثم خرج من عندهِ مغتاظًا وشد بأموالهِ وتوجه إلى أهلهِ وأطلالهِ. فنزل بالأراقم دون البرَّاق وأنكر لديهم واعتذر وقص عليهم ذلك الخبر وطلب منهم السماح والرض. وغض النظر عما مضى فالتفت عليهِ كليب وقال ليس هذا وقت اعتذار إنما أضرمتها أنت وتلقَّى حرَّها غيرك فذهبت مثلًا *

قال وشاع خبر سبى ليلى فى قابيل ربيعة ومضر ومن جاوره من عرب البر إلا قفر فأنفوا من ذلك وأخذتهم الغيرة والحمية وعطفت فى رؤوسهم النخوة الجاهلية وأشفق البرَّاق على ليلى واستعظم الأمر وأظهر على نفسه الجلد والصبر. وكتم ما عنده عن زيدٍ وعمرو *

قال وحضر عامر بن ذُؤَيب الأرقمى إلى البرَّاق وأخبرهُ بحال لكيز بن روحان وسأله القيام فى بيت ربيعة لخلاص ليلى من بلاد فارس وخراسان. فقال البرَّاق أنا

رجلٌ منكم إن طعنتم طعنت وإن كررتم كررت وإن فررتم عطفت وإن رحلتم رحلت وإن أقمتم أقمت فلما سمع عامر كلامهُ علم أنهُ قد أظهر خلاف ما أضمر فأنشأ يقول:

قد اجتمع البرَّاق فى حال حادثٍ ... له بين أحناءِ الضلوع وجيبُ
لهُ عين إغماضٍ وعينٌ قريرةٌ ... وصدرٌ على ما جاءَ منهُ رحيبُ
وأقسم لا قامت ربيعة بعدهُ ... وذلك من فعل الهمام عجيبٌ

ثم خرج عامر من عنده وقد داخلهُ أمرٌ مريب من ذلك وجاءَت أمُّ الأغرّ إلى أخيها كليب وتكلمت عليهِ كلامًا كثيرًا فى شأن ليلى ولامتهُ وغيرتهُ وأنشأَت تقول:

أراك عن الأمر المشتّت غافلًا ... كأنك ناجٍ من خزاياهُ سالمُ
وإن امرءًا عن مثله كان قاعدًا ... فلست تراهُ فى العلى وهو قائمُ
فسيروا لليلى لا شتمتم بعارها ... لقد فضحت فى شان ليلى الأراقمُ

قال فسكتّها كليبٌ وقال أَقلَى من اللوم فإن الذى بنا يكفينا وسوف ترين ما نصنع ثم نهض من ساعتهِ مع إخوتهِ وعمهما لكيز أبو ليلى وأولادهُ وقدموا على البرَّاق فقال كليب يا أبا النصر جيناك لأمرٍ مهم قد شملنا عارهُ فى كل مكان وذهبت بهِ الركبان ولامتنى أُمّ الأغرّ حتى عجزتُ عن جوابها وقد عنفتنى بخطابها فهلا تقوم فى ربيعة وتكشف عارها وتأخذ ثأرها وتستخلص ليلى من أسرها وإضرارها فإن أبوها قد ندم على ما فعل وجاءَ يعتذر إليك فاصفح له وسامحهُ من ذلك الزلل، لأن ربيعة ليس لها معينٌ سواك ولا رئيسٌ إلا إياك ثم قام أبو ليلى إلى البرَّاق واعتذر وسألهُ العفو وغض النظر ❋

قال فلما سمع البرَّاق كلامه قبل عذره والتفت على كليب ومن كان حاضرًا معه من رؤساء قومه وقال مرحبًا بكم يا بنى الأعمام فقد أجبتكم إلى هذا المرام وأنا أقسم بالبيت والحرم والركن المعظم لأبذلن معكم غاية جهدى ولأضربن دونكم

حتى يكل ساعدى وزندى تكفوا ألسنتكم عن التشييع بالغارة. كأنهُ لم يكن عندكم علم فى شيء من هذه العبارة لأن هذا ملك عظيم الشأن كثير الجند والأعوان. وهو فى مداين حصينة مشيدة البنيان لا تفيد فيها الغارة والقتال ولا يفيدنا إلّا المحاصرة وبذل الأموال فلو كان يسير إلينا فى الفضاءِ لكان أهون علينا من شرب الماءِ ولكن دونهُ خرط القتاد فى الليلة الطحناءِ فأرسلوا إلى إحواننا مضر الحمراء واستنصروهم لهذا الأمر المهمّ الذى لا يعيننا على مثله إلّا هم فانطلق كليب من ساعتهِ ووجه إلى مضر جماعة من أشراف وايل ورئيسهم عامر بن ذويب البطل الحلاحل. فقدموا على مضر فأكرموهم غاية الإكرام وقال عامر يا بنى الأعمال قد علمتم ما دهانا بهِ الدهر من سبى كريمتكم ليلى عند الأعجام وقد جينا نستعطيكم الدماءَ التى لكم علينا وقد علمتم أن ربيعة ومضر ليس لأحدهما غنى عن الأخرى فلا عذر لكم إلا تنجدونا على قتال كسرى فأجابهم نوفل بن عمرو القرشى بهذه الأبيات *

نال المصاب بنى عمى فاشجانا	وقد أضرَّ بنا والله ما كانا
لكنَّ فعلكم بالأمس فرّقنا	حتى كان لم نكن بالأمس جيرانا
فلا تلوموا بنى الأعمام غيركمُ	إذ كان منكم بدءُ الأمر طغيانا
قتلتمُ عكَّ طغيانا ومظلمةً	كأنكم لم تكونوا قطُ إخوانا
ولم نعقُّ ولم نطلبكُم بدمٍ	بل اعتزلناكُم عفوًا غفرانا
وقد صبرنا وكان الصبر عادتنا	على الصديق ولو بالظلم بادانا

ثم قال إننى أخاف إذا استنصرت القبايل ورأت مضر غريبًا من بنى ربيعة لأنا من وقوع الفتنة دون العجم فيأول الأمر إلى أعظم هذا عذرنا فأعرضوه على عقلايكم فانقلب وفد ربيعة حتى وصلوا إلى البرَّاق وأخبروه بما قال نوفل وأنشدوه الشعر فقال تعست الجناية على الصديق فسارت مثلًا ثم إن البرّاق جمع قومهُ بنى وايل وأحلافهم وجعل يحرّضهم للحرب وقال:

لم يبقَ يا ويكم إلّا تلاقيها	ومشعر الحرب لاقيها وآتيها

لا تطمعوا بعدها فى قومكم مضرٍ ... من بعد هذا فولوها مواليها
فمن بقى منكم فى هذهِ فلهُ ... فخر الحيوة وإن طالت لياليها
ومن يمت مات معذورًا وكان لهُ ... حسن الثناءِ مقيمًا ذثوى فيها
إن تتركوا وائلًا للحرب يا مضرٌ ... فسوف يلقاكُم ما كان لاقيها
يا أيها الراكب المجتاز ترقلُ في ... حزن البلاد وطورًا فى صحاريها
أبلغ بنى الفرس عنا حين تبلغهم ... وحى كهلان إن الجند عافيها
لابدَّ قومى إن ترقى وقد جهدت ... صعب المراقى بما تأبى مراقيها
أَمَّا إيادٌ فقد جاءَت بها بدعًا ... فى ماجنى البعض إذ ما البعض راضيها

قال ثم إن البرَّاق أغار بمن حضر من قومهِ ربيعة ومن معهُ من قبائل العرب وصجَّ مدينة عرنة وهى فى حدود الملك شهرميه وكان فيها قائدٌ للملك فى سبعين ألفًا من الفرس وأخلاط العرب وكهلان فهجم عليهم بخيلٍ قليلة حتى خرجوا من المدينة فانكسرت خيل البرَّاق فطمعوا فيها وساقوا فى أثرها حتى أبعدوا فعطف عليهم البرّاق بجموع العرب وقتل منهم وكانت الدائرة عليهم فأخذهم وغنم جميع ما فى المدينة من الذهب والفضة والسلاح وأنواع التحف ورجع ظافرًا غانمًا وأنشأ يقول:

أمِنْ دون ليلى عوَّقتنا العوايق ... جنودٌ وقفرٌ ترتعيهِ النقانقُ
وعجمٌ وأعرابٌ وأرضٌ سحيقةٌ ... وحصنٌ ودورٌ دونها ومغالق
وغرَّبها عنى لكيزٌ بجهلهِ ... ولما يعقهُ عند ذلك عائق
وقلَّدنى ما لا أطيق إذا ونت ... بنو مضر الحمر الكرام الشقائق
وإنى لأرجوهم ولست بائسٍ ... وإنى بهم يا قوم لا شك واثق
لليلى استطالت ليلتى بعد بيننا ... وقد بات دمعى وهو فى الخد دافق
فكيف وقد أصبحت فى دار غربةٍ ... وأسلمك الشيخ الجهول المنافق

اليلى وأنتِ القصد قد غالكِ النوى ... وفعل لئيمٍ يا ابنة القوم سابق
رمى الله من يرمى الكعاب بريبةٍ ... ومن هو بالفحشاءِ وللكر ناطق
فمن مبلغٌ برد الأيادى وقومهُ ... بأنى بثأرى لا محالة لاحق
ستسعدنى بيض الصوارم والقنا ... وتحملنى القبُّ العتاق السوابق
على مركبٍ صعب المراقى لأجلها ... وتنهضنى للمضلات الحقائق

ولما رجع البرَّاق من غزوتهِ وفدت عليه رؤساءُ العرب وأكابر الناس يهنيئونه بالنصر والظفر ومدحتهُ العرب بالأشعار فأعطى وكسا وأقرى ووفد عليهِ نوفل بن عمرو القرشى يهنيه وكان بينهما مودةٌ وأقام عندهُ واعتذر إليه عن المسير معهُ بقباير مشر وأن اجتماعهم معهم يهيج الفتنة فقيل عذره ورأى كلامهُ صوابًا وبعث البرَّاق إلى أخوالهِ طى يستنصرهم على العجم فأقبلوا إليه من كل فجٍّ فترحب بهم وأكرمهم وخصص خالهُ نصيرًا من تلك الغنايم بأسنى عطية وكانت ربيعة قد صارت أوسع العرب خيرًا لكثرة ما حازوا من غنايم مدينة عرنة وكان قد بلغ كسرى شهرميه قدوم العرب إلى حدود بلاده فاستعظم الأمر وقال هذا هو الحساب الذى كنت حسبتهُ وقد تم فجمع قواده وأرم بتحصين المدن والقلاع وأن يأخذوا الأهبة لقتال العرب فامتثلوا أمرهُ واستعدوا من يومهم وأرسلوا الجنود إلى ساير المدن التى فى جوار العرب وحصنوها فلما جاءَ عسركه منهزمًا من مدينة عرنة وأخبرهُ بما كان من افتتاح المدينة وقتل الرجال ونهب الأموال ساءَهُ ذلك وعزم على قتال العرب وخراب بلادها واستيصال أهلها وسبى الذرية ❋

قال ثم أن البرَّاق بعد ذلك وجَّه خالهُ نصيرًا يراقب العجم وينظر ما هم عليه من الاستعداد فركب نصير فى جماعة من قومهِ متخفيًا حتى ورد مدينة كرخا ودخلها فوجدها مزدحمة بالجيوش والعساكر ❋

قال وكان كسرى قد أرسل البهامايه ألف مقاتل من أبطال العجم لأنها مفتاح بلاده وكان فيها من العرب جمعٌ غفير من أولاد إياد وأنمار وكهلان فاجتمع منهم بنصير بن عمرو فترحبوا بهِ وأكرموه ولم يعلموا أنهُ صاحب البرَّاق فأقام عندهم

أيامًا حتى عرف ما هم عليه ثم خرج من بينهم وجاءَ إلى البرَّاق وأخبرهُ بأمرهم فقال لابد من قصدهم ولو كان قومهم كقوم تبَّع ثم إن البرَّاق عقد الرايات والألوية وسار حتى انتهوا إلى قرب المدينة وكان ذلك عند طلوع الفجر فأمر كليبًا وعامرًا أن يأخذوا بجنديها ميمنة المدينة والجنيد ونصيرًا بجنديها ميسرتها وأقام هو ومن معه من بنى أسد وحنيفة فى الوسط وعليه لواءُ الرياسة والملك وقال لنويرة تقدم أنت وم معك إلى باب المدينة واقتلوا من تظفرون بهِ فإذا اشتبك القتال بينكم انقلبوا إلينا هاربين فإذا رأوكم على ذلك الحال طمعوا فيكم وأغاروا خلفكم فإذا صاروا فى الفضاءِ فنحمل عليهم بجمعنا ونقطع ساقتهم فأجاب نويرة إلى ذلك وقصد باب المدينة فوجد عسكر الملك يرصدهُ فوضع فيهم السيوف والرماح فقال الصراخ فى المدينة وضجة الناس فخرج الملك شهرميه ومن معهُ من جنودٍ وقبايل فاقتتلوا قتلًا شديدًا وانهزم نويرة فتبعهُ الملك بعساكر ككراديس النمل فقال لهُ وزيرهُ برد بن طريح أنت تجهل قتال العرب وهذه خديعة من البرَّاق فلا تفرّط بالخروج والزم باب المدينة فعند ذلك رجع الملك وأغار برد بالجنود خلف نويرة فلما صارت جنود الملك فى الفضاءِ حملت كل قبيلة بما يليها وحمل فى أوايل القوم كليب والبرَّاق وقام الحرب على قدمٍ وساق واختلفت الطعنات بالرماح الدقاق وطارت الجماجم بشفار السيوف الرقاق وامتلأت الأرض بالأرعاد والأبراق وفاضت الدموع من الآماق وكان يومًا مهولًا لا يطاق وما زال الحرب يعمل والدم يبذل والرجال تقتل حتى ضاق الميدان وصحى السكران وثبتت الشجعان وولى الجبان وقدحت حوافر الخيل شرار النيران. وكان البرَّاق يتشوف برد بن طريح وهو لا يعرفهُ من بين الفرسان وكان فى كل حملةٍ ينادى أين برد فارس الطعان وبرد يسمعهُ ولا يبرز إليهِ خوفًا منس يفهِ والسنان وما زالوا على مثل ذلك المرام حتى ولَّى النهار وأقبل الظلام فافترقوا وقد انصرت جموع ربيعة على عساكر الأعجام واستظهروا فى ذلك اليوم عليهم كما تستظهر البواشق على الحمام فانهزموا ودخل الملك المدينة بسوءِ حال وهو حزين على ما فقد لهُ من الرجال والأبطال وباتت ربيعة تشب نيرانها فى تلك البطاح وهم فى غاية السرور والأفراج ولما جنَّ الليل نهض البرَّاق وزيد بن

ذويب متشحين بسيفيهما يلتمسان خبر ليلى فدخلا المدينة وكان بابها لا يزال مفتوحًا ليلًا ونهارًا لأجل قبائل العرب المجاورين العجم فلم يريا من يلتمسان الخبر منهُ فقصد مضرب جبراخا برد بن طريح فلم يجدا فيه إلَّا أعجميًّا على فراشٍ من الديباج فأنزله زيد عن فراشه فصاح فقال زيد أسكت ولك الأمان وإلَّا ذبحتك فسكت واستخرجاه من موضعه وسارا بهِ فسألاه إذا كان يعرف مكان ليلى قال نعم هى فى قصرٍ قد أعدهُ لها الملك وسط المدينة وهى فى كل عزازة وكرامة فقالا تدلنا عليها ونخلّى سبيلك فوافقهما على ذلك وكان من أعيان قواد الملك وكان البرَّاق قد ارتاب من كلامهُ فقال نرجع الليل ونستشير نوفلًا وانقلبا راجعان إلى نوفلٍ فأخبراه والأعجمى معهما فقال لهما يكون ذلك فى الليلة المستقبلة وأما هذه فقد انقضت فدفعا إليهِ الرجل فسلمهُ إلى من يحفظه إلى الصباح. ولما أصبحوا نهض البرَّاق فى جماعة من قومه ونزل بالقرب من المدينة وأحاط بأسوارها وكانوا كل ما ظفروا بأحد من العجم كان أو من العرب المجاورة أخذوا ما معهُ وقتلوهُ فأضر ذلك بقبايل العرب والعجم فخرجوا عليهم وقاتلوهم قتالًا شديدًا حتى خيَّم عليهم الظلام فافترقوا وقتلت منهم ربيعة ذلك اليوم قلةً شنيعة وأسروا منهم جماعة ثم إن البرَّاق نادى زيد بن ذويب الذى صحبهُ فى الليل الماضية وأخذوا العجمى المذكور وطلب منهُ أن يدله على مكان ليلى ويخلى سبيله وانتدب البرَّاق رجالًا من فرسان قومه خوفًا من حدوث أمر لم يكن على بال. منهم كليب بن ربيعة ونويرة وعقيل وأخون غرسان بن روحان وساروا والعجمى معهم وكان باب المدينة مفتوحًا منهُ ما يسمع دخول الرجل فقط دون الخيل والإبل فسار بهم العجمى حتى وصلوا إلى القصر الذى فيه ليلى وكان بوَّاب القصر أعجميًا فناجاهُ الأسير بأن فهؤلاءِ من العرب قد أسرونى ووعدونى إن أوصلتهم إلى مكان ليلى يخلون سبيلى وقد ضمنت لهم ذلك فهل لك أن تأذن لى ترحمنى ولم يزال يتطلف بهِ حتى أذن لهم فدخلوا القصر واستخرجوا ليلى وأردفها عقيل خلفهُ وانصرفوا وخلوا سبيل العجمى فصاح البوّاب عند رجوعهم فجاءَت غلمان الملك فى صدورهم الحجب والسيوف المزخرفة ولزموا عليهم الشوارع وضيقوا عليهم المسالك ورشقوهم بالنبال

والحجارة ونازلوهم بالسيوف فاستنقذوا منهم ليلى قوةً واقتدارًا وأُفلت البرَّاق ومن معه بعد جهدٍ جهيد حتى انتهوا إلى نوفل فأخبروهُ بما كان فقال هلَّا قتلتم الحاجب والأسير بعد أن ظفرتم بليلى فقالوا منعنا من ذلك العهد الذى سبق منا قال قد كان ذلك فسلامتكم غنيمة وكان البرَّاق قد اعتراهُ غمٌّ جسيم لفقد ليلى فبات ليلتهُ على همٍ سديد وشاق صدرهُ فقال:

ألم تـــرَ مـــن دون ليلـــى لنـــا ... ضـــرابًا طويلًـــا وزحفًـــا ثقـــيلا
وحـــذف الحجـــار ورمـــى النبـــال ... وأســـاد حـــرب تـــسدُّ الـــسبيلا
وهـــو المـــضيق وســـوء الطريـــق ... وبابًـــا لحاجبـــهِ مـــستطيلا
ولـــو كنـــت أدركـــت ليلـــى اذن ... ركبـت إليهـا بعزمـى فـى الخيـولا
ولكنهـــا تحـــت روع الهـــلاك ... وذلـــك هـــمٌ أراهُ طـــولا

فلما أصبح اصطف القوم واقتتلوا إلى المساءِ فانكسرت العجم وكثر فيهم القتل فدخلوا المدينة وغلقوا أبوابها وتركوا الأثقال والفرش والمضارب والبغال خارج المدينة فأخذتها ربيعة عن آخرها ثم إن الملك شهرميه تحصَّن فى المدينة ولم تزل ربيعة محاصرةً للبلد من جميع أقطارها أيامًا وليالى فلم يظهر منهم أحدٌ فاجتمعت رؤساءُ ربيعة إلى البرَّاق وقالوا يا أبنا النصر أتعبتنا الإقامة ونص عددنا القتل وضعفت خيلنا فما ترى فى أمرنا فقال نرجع إلى ديارنا ونستعطف قومنا مضر ونزداد قوةً ونعود فانقلبوا راجعين بجميع الغنائم التى أخذوها وأنشأ البرَّاق يقول:

عفـوتُ بقـومى البحـرا نـزف مـاءُوهُ ... وهـل ينـزفنَّ البحـر يـا قـوم نـازفُ
ويـوم التقينـا ظـلَّ يـوم عمطمـطٍ ... وفيـهِ غبـارٌ ثـائرٌ وعواصـف
وضربٌ يقدمُ الهام بالبيض موجعٌ ... وفيـهِ الجيـاد الـسابحات زواحـف
إذا قيـل قـد ولَّـت هزيمًـا فإنهـا ... بقـدر لحـاظ الطـرف منـك عواطـف
وظـلَّ لهـا يـومٌ يجمّـع هبـوةً ... بهـا يبتنـى سـقفٌ مـن الأفـق واقـف

ودارت رحى الحرب المشيبة للفتى ... وهالت ذوى الألباب تلك المواقف
بها نغم الأسياف تنطق بالطلى ... فصيحات حدٍّ ثائراتٌ خفائف
فأبت إلى ما يستشير بنى أبي ... وينهضها الشمُّ الكرام الغطارف

قال وإن ليلى لما علمت برجوع قومها إلى ديارهم تذكرت غربتها فحزنت حزنًا عظيمًا وبكت بكاءً شديدًا ودعت رجلًا من بنى أنمار وبذلت لهُ العطية وأرسلتهُ إلى قومها سرًّا وأمرتهُ أن يستنجدهم وينشدهم قصيدتها المقصورة فمضى الأنمارى حتى اجتمع بالقوم وأخبرهم بحزن ليلى وما هى فيه من الغم والقلق وأنشدهم قصيدتها التى تقول فيها:

ليت للبرَّاق عينًا فترى ... ما أقاسى من بلاءٍ وعنا

فلما فرغ منها وسمعتها آل ربيعة خنقتهم العبرة فقال كليب يا قوم ما هذا أوان البكاءِ قوموا بنا إلى البرَّاق فامتثلوا وساروا حتى قدموا عليه ومعهم الرسول فأنشدهُ الشعر فأنف البرَّاق ولحقتهُ حمية الجاهلية وقال توجَّه يا كليب أنت وإخوتك وابن عمك لكيز واقصدوا أحياء طى ومضر واستعطفوهم واستوهبوهم الدماءَ واستنجدوهم وأنشدوهم شعر ليلى فمضوا وكان أول من وفدوا عليهِ زيد بن رياح فأخبروه وأنشدوهُ شعرها فأنف من ذلك أنفًا عظيمًا وأنشأ يقول:

أبلغ ربيعة أ، ى ثائرٌ مَعَهُمْ ... فى آل ضبَّة داعى القوم داعينا
فإن ربيعةُ ردَّت فهى عالمةٌ ... بأنَّ وائل فى هذا موالينا
وعندهم من جياد الخيل أجودها ... والزغف والخطُ مع بيض بلالينا
والمقدمون بهم فى كل حادثةٍ ... والواردون المنايا لا يباللونا
فشمروا يا بنى قيسٍ بأجمعكم ... إلى الطعان فما زلتم مطاعينا
أنهى بنى العم لا تخزوا بنى أسدٍ ... ولا تكفوا ولا تبقوا أعادينا

واستعد زيدٌ للمسير وقال لهم أقدموا على إخوتكم مضر وأخبروهم واستعطفوهم وأنشدهم الأنمارى شعر ليلى فلما وصل إلى قولها:

قُـــل لعـــدنانَ فُـــديتم شُـــمِروا ... لبنـــى الأعجـــام تـــشمير الوفـــا
واعتقـــدوا الرايـــات وإيتـــونى بهـــا ... وأشهروا البيض وسيروا فى الضحى

استعظموا الأمر وأَنفوا من ذلك أنفًا شديدًا وسعى بعضهم إلى بعض فقام النفَّاع بن عوف العامرى وأنشد يقول:

كـــم القطيعـــةُ يـــا أبنـــاءَ غـــيلانِ ... قطعـــتمُ وائلًـــا قـــومى بـــاعلانِ
لابـد مـن غـارةٍ للعجـم فاجتهـدوا ... فـسوف يبـدلهُم شـانٌ مـن الـشان
لا صبر لى بعد هذا عن بنى أسدٍ ... شم العرانين مما قد جنى الجاني
يـا أيهـا النـاس سـيروا بالجيـاد إلى ... إيـاد فـى فـسطلٍ مـستعزمٍ بـان
يـــا أيهـــا القـــوم لا أمٌّ لأَمِّكُـــمُ ... ظنَّت بنو الفرس ظنًا ليس بالداني
إِنَّـا ووائـلُ عظـمٌ لا انفـصام لـه ... معـاقلى وذوى مجـدى وفرسـاني

ثم قال زيد بن دُرَيد وأنشأ يقول:

يـا آل عمـرو بنـى العلياءِ مـن مـضرٍ ... أنـــتم آل نـــزارٍ بيـــت مفتخـــرِ
يـا آل مدركـةٍ سـيروا بـأجمعكم ... بـــالجرد والمـــرد والهديـــة الـــبتر
ظنـــت بنـــو الفـــرس ظنًّـــا وهـــو ... وسـوف يلقونـهُ عـسرًا مـن اليـسر
سـيروا لحـى إيـادٍ سـير ذى ظعـنٍ ... وحـــى أنمـــار والمـــاذى والـــسمر
وقـد علمـتم بـأن النـصر عـادتكم ... إذا نهـضتم يقفـوكم علـى الأثـر

قال وهاجت رؤساءُ مضر عند ذلك واضطربوا وأخذتهم حمية الجاهلية وعموا على نصرة إخوتهم ربيعة وتركوا لهم كل ما كان بينهم من دمٍ أو ثأرٍ ثم أقبلوا على كليب ومن معه من رؤساءُ ربيعة وقالوا مرحبًا بكم يا سادات ربيعة لكم النصرة والنجدة على عدوكم فانصرفوا من عندهم مسرورين وتواعدوا أن يحضروا إليهم مع البرَّاق إلى الحَرَم فيجتمعون هناك للمشورة واجتمعت قبايل مضر عند قريش وأتاهم البرَّاق فى قومهِ ورؤساءُ ربيعة كافةً والتقوا بإخوانهم من مضر وتصافحوا

وتسالموا وذهب ما كان فى قلوبهم من الأحقاد القديمة ووقَّتوا للمسير وقتًا معلومًا ثم إنهم انصرفوا لإصلاح شأنهم وراح البرَّاق بمن معهُ فرحًا مسرورًا وأنشأ يقول:

لقد صدق المخبّر والمشيرُ ... وطاب لى التجهُز والمسيرُ
ولى قلبٌ إلى الأعجام فيهِ ... جنود الشوق تخفق أو تطيرُ
بنى إسحقَ ويحكمُ تهيُّوا ... ومن حوليكُم أبدًا وسيروا
إليك ربيعةٌ بالخيل معها ... بنو أسيدٍ وغسان الصقورُ

قال ولما بلغ الملك شهرميه اتفاق ربيعة ومضر على المسير على بلادهِ جزع لذلك واضطرب اضطرابًا شديدًا وكتب من وقتهِ إلى جميع عمالهِ وقوادهِ ومن يعتمد عليهم وأمرهم بأخذ الأهبة والاستعداد وكانت القبايل من العرب الذين فى جوار العجم لما بلغهم قدوم ربيعة ومضر احتسبوا وخافوا ورفعوا حريمهم وأموالهم من حدود العرب إلى حدود العجم وانضموا إليها انضمامًا صحيحًا.

قال صاحب الحديث وتجهزت بعد ذلك ربيعة ومضر. فى جمع غفير من العسكر. وساروا طالبين مدينة كرخا وتلك المعالم لأجل استخلاص ليلى من سبى الأعاجم وسار معهم نصير خال البرَّاق الأسد الكاسر. ومن استطاع المسير من سادات العشاير والجميع بالدروع والمغافر والسيوف البواتر وكان ثعلبة بن الأعرج لما سمع برحيل الفرسان نهض فى من يجيب دعوته من قومهِ كهلان والتقاهم فى بعض الطريق وهو يقول:

أتينا وسرنا بالقواضب والقنا ... بنى مضر الحمرا وأبناءَ وائلَ
نيا عفر دلَّاج الثغور عرمرٌ ... جحافل جيش أردفت بجحافلِ
بها ليل من كهلان قومى وغيرها ... قسطالها موصولةٌ بقصاطلِ
نريد بها كرخا ومن حلَّ حولها ... إيادً وأنمارًا أهالى الدلايلِ

ولم يزالوا سايرين مدة أيام. وهم يقطعون الفيافى والآكام إلى أن ظهرت لهم المدينة عند غروب الشمس. فصادفوا فيها جنودًا لا تحصى من العرب والفرس

فنزلوا فى تلك الأرض ونصبوا خيامهم وأركزوا أعلامهم ولما كان الصباح ركبوا ظهور الخيل وتأهبوا للحرب والكفاح واعتقلوا بالسيوف والرماح فالتقتهم العجم والعرب فى تلك البطاح وقد ارتجت الأرض من كثرة الضجيج والصياح ولقيت كل قبيلةٍ قبيلةً أخرى فواقعت كهلان أخوالها طى لقى بنو شيبان إيادًا وتغلب أنمارًا وتميم ومدركة جيوش كسرى. فيا لهُ من يومٍ ما كان أكثر غبارهُ وأشد هولهُ وأحرّ ناره ولم يزالوا فى العراك والصدام إلى أن ولّى النهار وأقبل الظلام وكانت عساكر كرخا قد كلَّت وملَّت وكثر فيها القتل واضمحلت فتأخرت وأذنت بالفرار ودخلت المدينة تحت ستور الاعتكار وكسبت العرب منهم فى ذلك اليوم من الغنايم ما لم يعرف لُه ثمن ولا مقدار ولما كان فى اليوم الثانى خرجت عساكر العجم بكل فارس كرار مطالبة قتال العرب وفى قلبها منهم لهيب النار. فلما التقت العين على العين اشتعلت نيران الحرب بين الفريقين وقاتلت العجم فى ذلك اليوم وصبرت وما تركت شيئًا من جهدها ولا قصرت ومازالت نيران الحرب ملتهبة إلى أن أمسى المساء فافترقوا عن غير غلبة. ولما كان شيءٌ من الليل استدعى البرَّاق بجماعة من قومهِ فلما حضروا قال لهم اعلموا يا بنى العم أننى ما دعوتكم إلَّا لأمر مهم. فقالوا مر با شيت أيها البطل الصنديد فإننا نسمع ما تأمر ونفعل ما تريد. وقد علمت يا أبا النصر أننا لم نفارق الأهل والديار إلَّا لما يكشف عنا العار قال قد علمتم أن المطلوب من هذه الغزوة التى ذهبت فيها الفرسان والتحق سوءُها بالعجم والعربان هو ليلى العفيفة بنت لكيز بن روحان وعلمتم أنها تحت روع الهلاك والوبال ولا تنال إلَّا بالتطلف والاحتيال فهل فيكم نجدةٌ للقيام معى فى طلبها لعلنا نستنقذها ونظفر بها فقالوا نحن طوع يديك ولا نبخل بأرواحنا عليك فشكرهم على ذلك وسار بهم فى تلك الليلة تحت جنح الظلام وأدخلهم إلى المدينة وم يتخللون عساكر الأعجام وما زالوا يتجسسون كل ذلك الليل إلى شروق الشمس ولم ينكرهم أحدٌ لاختلاط العرب بالفرس. وبينما هم كذلك إذ وقفوا على مضرب كبير حولهُ مضارب وقباب فيها جندٌ كثير فأنكر الجند أمرهم وهجموا عليهم كالسلاهب وأحاطوا بهم من جميع الجهات والجوانب. هذا وقد ارتفع الصياح وتكاثرت عليهم العساكر فوضع

البرَّاق وأصحابه فيهم السيوف والخناجر ولم يزالوا يقتلون كل من يهجم عليهم حتى خرجوا من باب المدينة وقد أمنوا من المخاطر *

قال ولما كان الصباح خرجت عليهم عساكر الملك من المدينة وماجت فى تلك البطاح كما تموج فى البحر السفينة وصدمت أبطال العرب من ساير الجهات. وانتشب القتال بين الفريقين وعَلت الأصوات وأُشرعت الرماح الردينيات. وعملت السيوف المشرفيات. وتقابلت الصفوف وخفقت الرايات. وكان يومًا لا يقاس بالأيام. ولم يسبق مثلهُ فى سالف الأعوام لأن الدما كانت تتفجره والجماجم تتكسره والأرض ترتج من الضجيج والعجم تهدر وتهيج فوقع الخوف فى قلوب العرب وهمَّت بالهزيمة والهرب خوفًا من وقوع العطف وقد احتارت فى أمورها وظهر عجزها وتقصيرها. ولما رأى البرَّاق كثرة عدد الأعجام وجرأتهم على الإقدام ونظر قومهُ بين إقدامٍ وإحجام خاف عليهم من الانهزام فأخذ يحرضهم على القتال ويقول هذا يوم قاسمة الظهور هذا يوم السعى المشكور ولا ينال الثنا والحمد إلَّا الصابر الجسور فالتقوا بصدوركم هذه الطلايع والصفوف واعلموا أن العز فى أطراف الأسنة وشفار السيوف فإن تبتم ظفرتم ونلتم الشرف والفخر وإن نكلتم لم تقم لكم قايمة مدى الدهر فاهجموا وكروا ولا تدبروا وتفروا فلما سمعوا كلامه أخذت بهم الحمية ولعبت فى رؤسهم النخوة العربية فعطفوا وحملوا حملة رجلٍ واحد وصابروا على الموت والشدايد والتحم العرب والطعن بالرماح وكثر القتل والجراح وثبت الفارس الحججاح وولى الجبان وراح. وما زالوا فى معركة الكفاح إلى أن حجز الليل بينهم فانفصلوا وبات كلٌّ من الفريقين يشبّ نارهُ إلى الصباح ولما كان النهار خرجت عليهم جنود العجم كالجراد المنتشرة واقتتلوا قتالًا شديدًا وظهرت راية العجم على العرب وكثرت النكاية فى ربيعة ومضر فحافظت على راياتها وصبرت على ما لم يصبر عليهِ أحد من البشر وما زالوا فى قتال وصدام إلى أن ولى النهار وأقبل الظلام فعند ذلك دخلت العجم المدينة وكانت كما ذكر بالأهبة حصينة فأغلقت الأبواب ورجعت العرب إلى خيامها قال وما زالوا على هذه الحال أيامًا متصلة يقتتلون من الصباح إلى المساءِ عند باب المدينة وكلما رأت الأعاجم

الغلبة أغلقت الأبواب ورشقتم من شوارف السور بالنبال والحراب وكان هذا دأبهم برهةً من الزمان فاضرَّت بقايل العرب هذه الإقامة ووقع فى عددهم النقصان وضعفت خيلهم من كثرة الكد والجريان وكانت العجم قد ضايقتهم لشد الضيق حتى كاد ينفذ ما عندهم من الخبز والدقيق والعجم لا تزداد إلَّا قوةً ومددًا ولا ينقص القتل منها عددًا فضاق منهم الأنفاس وعدموا الرشد والحواس وأيسوا من أنفسهم حد الإياس وندموا على حضورهم إلى تلك الآفاق. فهنض ثعلبة بن الأعرج ونصير خال البرَّاق وسارا من ليلتهما إلى ديارهما بمن معهما من الأهل والرفاق وبقيت ربيعة ومضر ومن معهم من العسكر ولما كان الصباح خرجت عليهم جنود الملك فالتقت الأقران بالأقران وامتدت الأعناق للضراب والطعان واكفهرت الوجود من الخوف واغبرّت واكتست الأجسام بريش النبال فاقشعرت وثار الغبار وقام القتام وخاض بحار الدماكل خاصٍ وعام واستمر الحال على مثل ذلك نحو عشرة أيام. وكانت قد انكسرت العرب وقتلت العجم منهم قتلة هايلة وكان من جملة المقتولين غرسان بن روحان أخا البرَّاق فعظم الأمر على العرب، وخافوا على نفوسهم من الهلاك والعطب *

قال صاحب الحديث ثم إن رؤساءَ ربيعة ومضر اجتمعوا إلى البرَّاق للمشورة وقالوا يا أبا النصر إن هذه الإقامة قد أضرَّت بنا وأضعفت خيلنا وأذهبت رجالنا بالقتل والجراح والأعادم لا يزدادون إلَّا قوةً وقد رأيت ما حل بنا من الخسارة بعد أن كدنا ننهزم وتفرقت القبايل عنا ولم يبقَ إلا نحن أبناءُ الأخوين وإنَّا نخشى من السبى والهلاك فنكون لا أدركنا الحسنى ولا سلمنا من الهزيمة والقتل هلَّا تدركنا بالرحيل إلى أهالينا ونستريح ونريخ خيلنا ونستعد للرجوع مرةً أخرى فبكى البرَّاق وقال هيهات ضاقت صدوركم وخفتم القتل فشانكم وأنفسكم وأما أنا لست براجع دون فكاك ليلى ثم سألهم المبيت تلك الليلة فلم يروا ذلك رأيًا وغلّبوا الظن أن أصبحوا وقالتوا تأخذهم العجم فنادوا بالرحيل ورحلت ربيعة ومضر وغنايمها بين يديها ومنهم لم يعلم بتخلف البرَّاق وكانوا يسيرون رُفَقاءُ وكل مكان يبيتون الليلة والليلتين ويزعمون أن البرَّاق لا يصبر على الإقامة وإنهُ يلحق بهم فى الطريق

وكان البرَّاق قد بات ليلته إلى الصباح فأخذ أخاهُ غرسان واحتملهُ على جوادهِ وخرج بهِ إلى شرقى المدينة وإذا هو بنهرٍ جارٍ وعندهُ حائطٌ جامعٌ للأشجار ودارٌ مشيدةٌ لرجلٍ من إياد يقال لهُ صريم ولإخوتهِ وعبيدهم فدنا البرَّاق من النهر وأنزل أخاهُ وغسلهُ من الدم والتراب وفرش لهُ فراشًا من ديباجٍ كان معهُ وألقاهُ عليه وجعل فوقهُ ثوب خزٍ ونزع البرَّاق درعهُ ولباسهُ وجعل يغتسل ويستنقى من صدا الدرع ثم لبس أثوابهُ وانعكف على أخيهِ وقبّلهُ بين عينيهِ وأنشأ يقول:

تولت رجالى بالغنايم والغنى ... مزّجّينَ للأجمال من رَمَلانِ
ونادوا نداءً بالرحل فلم أطِق ... إيابًا وصنوى فى المعارك فان
وودلى كليبٌ بعد أيقنَ أنني ... سأمكث لاتُثنى بداى عنان
كذاك أبو زيد مضى بغنيمةٍ ... مع ابن عبادٍ والفتى ابن إبان
وراح لكيز لشج بحمى مريَّةً ... مضمرةً قد ضمِرّت لرهان
إلا وجنيدٌ قد تولىّ ولم يكن ... ليغضبهُ ما كان من غرسان
كذاك ظليلٌ والرسيل وسالمٌ ... أُولئكَ فرسانٌ وأهل طعان
وأدَّن منا حين راح مهلهلٌ ... بعلمٍ صحيحٍ ليس يجهل شاني
بأنى مع غرسانهِ مختلفٌ ... وإنى إلى الأوطان لست بدان
أَأُوبُ إلى أمى سليمًا مكرَّمًا ... وغرسان مقتولٌ بدار هوان
أَأَترك من لا يترك الدهر طاعتي ... ملبٌّ لما أدعو بكل لسان
أخى ومعينى فى المضيق وصاحبي ... بكل إغاراتى بحدّ سنان
وأكثر ما بى أن تولى نويرةٌ ... وأنكر ما أسلفت يوم دعاني
دعانى وقد ألقى المهلهل بالقنا ... بنو بدر مكتوفًا وكل يماني
فلما دعانى يا أبا النصر لم أَخم ... وقوّمت عسالى وصدر حصاني
طعنت بأولى الرمح جبهةَ مالكِ ... وغيّبتهُ فيه بغير توان

وجندلت عمارًا بضربة صارمٍ ومزّقت شمل الجند بالحولان
فمن مبلغٌ عنى كليبًا رسالةً ألم يكُ فى ما يشتهى بمعان

قال ولما فرغ البرَّاق من شعره بكى على أخيهِ بكاءً شديدًا ثم نصب ركبتيه ووضع جبهتهُ عليها ليستريح من شدة النعاس وكان بالقرب منه غلامٌ لرجلٍ من أشراف إياد يقال له صريم صاحب القصر المذكور فرأى البرَّاق وهو لا يراهُ وسمع شعرهُ فأحزنهُ ولما استلقى البرَاق على قفاهُ دنا الغلام من غرسان وكشف وجههُ فنظر إلى صورةٍ حسنة فتأسف عليه فلم يملك الغلام غبرتهُ دون أ، بكى فرفع البرَّاق رأسهُ وقال من أنت ومن يكون مولاك يا غلام قال صريم الإيادى وهو صاحب هذه المنازل والبلاد فعند ذلك تذكر البرَّاق ما هو فيه من الكربة والمحن. وما جرى عليه من الفراق والغربة عن الوطن. ففاضت عيناه بالدموع وأنشد من فؤادٍ موجوع:

بكيت لغرسانٍ وحقَّ لناظري بكاءُ قتيل الفرس إن كان نائيا
بكيت على وارى الزناد فتى الوغى الـ سريع إلى الهيجاءِ إن كان عاديا
إذا ما علا نهدًا وعرَّض ذابلًا وقحَّم بكريًّا وهزَّ يمانيا
فأصبح مغتالًا بأرضٍ قبيحةٍ عليها فتىً كالسيف فات المجاريا
وقد أصبح البرَّاق فى دار غربةٍ وفارق أخوانًا له ومواليا
حليف نوى طاوى حشى سافحًا دمًا يرجّع عبراتٍ يهجن البواكيا
فمن مبلغٌ عنى كريمة أمهِ لتندب غرسانًا وبرَّاق ثانيا
وقل لكليبٍ لا أقام بدارهِ ولا كان محمود الأفاعيل ماضيا
ولا أومضت نيران آل نويرةٍ ولا كان يومًا فى لوا القوم لاويا
ألا ولكيزٌ غير العار وجههُ كما غيَّب الحسنى وأصبح خالها
فليتَ لليلى فنظرة فتعينني بها حججًا سبعًا نعم أو ثمانيا

ولـو علمـت ليلـى وكانـت خـبيرةً ... لجـاءَت تبـارى العاصـفات الـذواريا
أمـا احـترت ليلـى الغـداة بـأنني ... أزيـد علـى غرسـان همًّـا كمـا بيـا
لقـد قطـع الوصـل الـذى كـان بيننـا ... لكيـزٌ بغـاراتٍ تـسيبُ النواصـيا

فلما سمع الغلام كلام البرَّاق انقلب إلى مولاهُ ليخبرهُ بحال البرَّاق ويستعينهُ على جهاز أخيهِ ودفنهِ فلما دخل عليهِ أخبرهُ بهِ فقال صريم صفهُ لى قال هو سيد بنى وائل فعلم صريم أنهُ البرَّاق وطمع فى قتلهِ نظرًا لما بينهم من الأدمية فأحضر إخوتهُ وعبيدهُ وأخبرهم بما فى نفسهِ فوافقوهُ على ذلك وشدُوا جياد خيلهم فلما رأى الغلام ذلك أسرع إلى البرَّاق فأنذرهُ فقام البرَّاق ولبسن لأمة حربه وركب ظهر جواده واستعد لقتاله ❊

قال وبينما البرَّاق ينتظر صريمًا ومن معهُ إذ قدم عليهِ فى إخوتهِ وهم سبعةٌ وعبيدهُ بالسلام على الخيل فلما رآهم البرّاق قوَّم سنان رمحه بين أُذْنى فرسهِ وتقدَّم نحو صريم وصمّم عليه بالطعنة فخاف صريم وقد أيقن بالموت فناداه ترفَّق بى أيها الفارس الأمجد. والبطل الأوحد. ثم إنهُ نزل عن ظهر حسانهِ وحلَّ حمايل سيفهِ ودفعهُ إلى بعض غلمانهِ وأقبل يسعى على قدميه حتى دنا من البرَّاق فاعتذر إليه وقال قد ضمك المقدور بتشريفك إلى هذا البيت فأهلًا وسهلًا بك فأخبرنى من أنت ومن أين أتيت فلما سمع البراق منهُ ذلك المقال. أنشد يقول:

يخـوّفنى صـريم وأن حـولي ... بنـى أسـدٍ بأسـيافٍ رقـاقِ
وآل حنيفـة وبنـى لهـيمٍ ... وتغلـب بالمثقَّفـة الـدقاق
وإن كليـب ويحـك عـن يمـيني ... نعـم ونـويرة أسـد الـتلاق
لقـد عجـب الـصريم مـن انفـرادي ... فـشدَّ الخيـل منـه لكـى يلاقـي
فلـو كـان الـصريم أشـدَّ عزمًـا ... لظـلَّ لـدى مـشدود الوثـاق
أمـا يُـدنى القـضا منـى لـبردٍ ... فأطعنـهُ بمجتمـع التراقـى
واجعـل فـى منازلـهِ صـياحًا ... وفـى نـسوانهِ أمـض الطـلاق

طـلاق المـوت يـا لـك مـن طـلاقٍ كـــــال لا يعقّـــــب بـــــالتلافي

فقال صريم إننى ما جبت إلَّا طامعًا فى قتلك فلما نظرتك ذهب ذلك الطمع وولَّى. وهل فى قومى إياد وغيرها نظيرٌ لك كلَّا. وها أنا قد أسلمت أمورى إليك وجعلت اتكالى من بعد الله عليك فامنن على بالسلامة وأعطنى الأمان وأكون عونًا لك على نوائب الزمان فلما سمع البرَّاق كلامه أنشد يقول:

عـونى عليـهِ فتًى فـى أرض شـيبانِ فمـا أعـدُّ رجالًـا مثـل نـسوانِ
كـم باكيـات لليلـى فـى بنـى أسـدٍ ونادبـــاتٍ بحـــسراتٍ لغرســـان
لهفى عليهِ ثوى فى موطنٍ خشنٍ بـــين الجيـــاد بأســـيافٍ ومـــرَّان
والخيـل تقـرع عرضًـا فـى أعنتهـا والأرض تقـذف سـيلًا مـن دمٍ قـان
فـذاك مـشرع أبـاءِى الأولى سـلفوا بـين المعـارك مـن شـيبٍ وشـبَّان
لا نَـشْرإِبُّ إلى مـوت الفـراش ولا نرضـى المصارع مـن أهـلٍ وجيران
ارجـع صـريم كمـا أقبلتنـى عجلًـا فـيس شـأنك يـا قرشـى مـن شـاني
إنَّـا لبكـر طـى حيثمـا اختلطـت منـا المناسـب مـن طـى وعـدنان
أو لطـــى إذا حققتهـــا وإنـــا حقًّا أبـو النـصر بـرَّاق بـن روحـان
ووائـلٌ نـسبى لا أبتغـى بـدلًا مـنهم ولا فـى سـواهم معـشرٌ ثـان
ولـت فـى الفـرس محتـلٌّ يـساحتها شـبه اللـصيق علـى زورٍ وبهتـان
جـرت جريـرة بـرد ليـت تظفرنـي بـهِ الليـالى ولـو مـن بعـد أحيـان
الكاسـب العـارى نـوم ذوى حسبٍ ومنـزلٌ أهلـهُ فـى المنـزل الثـاني

فلما سمع صريم شعر البرَّاق أخذ يعتذر إليه وقال لهُ طب نفسًا وقرّ نفسًا ولك الأمان على كتمان الأمر فلا بد لى أن أبذل معك غاية المجهود فى نوال مرادك ثم إنهُ أعطاه عهدًا وميثاقًا على ذلك فاطمأنت نفس البرَّاق وكانت العرب إذا حلفت لا تنكث فعند ذلك نزل البرَّاق عن جواده وصافحهُ ووضع كفهُ بكفهِ وعزاهُ صريم

بأخيه وأمر عبيدهُ باحتفار قبرٍ لهُ فسارعوا إلى ذلك وانقلب إلى دارهِ فأتى بأكفانٍ من أفخر ما عندهُ من اللباس وكفنهُ ودفنهُ وبكوا عليه ثم ركب صريم بالبرَّاق إلى دارهِ وأنزلهُ فى أعلاها وفرش لهُ فرشًا من الديباج وترحب بهِ وأكرمه غاية الإكرام وأمر بإحضار الأطعمة والفواكه وجلس يأكل مع البرَّاق ووعدهُ بكل خير *

قال ابن نافع هذا ما كان من أمر البرَّاق وأما ما كان من قبايل ربيعة فإنهم لما قدموا على أهلهم بغنايمهم وليس البرَّاق معهم سألتهم النساءُ عنهُ فلم يأتوا عنه بخبرٍ وأخبروا بقتل غرسان وجميع القتلى من ربيعة ومضر فأعولت النساء من كل مكان وما فحرت منهنَّ امرأةٌ بسلامة زوجها ولا ولدها وأما نساءُ بنى أسدٍ فضربن الستور دون رجالنَّ وسَوَّدْنَ خدودهنَّ وشَقَقنَ جيوبهنَّ وقَطَعْنَ شعورهنّ وأعولنَ بالبكاءِ ونسين كل قتيلٍ وتكلمت أم الأغرّ على إخوتها كلامًا شنيعًا وأنشأَت تقول:

إلا فـــأبكى كريمـــة لا تملّـــي ... فلـــى بعـــويلكم أبـــدًا عويـــلُ
فـــلا ســـلمت عـــشيرتنا وعـــادت ... إذا غـــرب ابـــن روحـــان الأصـــيل
إذا رحـــتم وخلفـــتم هُبلـــتم ... أبـــا نـــصرٍ فـــلا رح القبيـــلُ
فَـــرِحتم بالغنـــائم حـــين رُحـــتم ... وبـــان تعـــستم الغـــنم الجليـــلُ
تـــركتم ذا الحفـــاظ وذا الـــسرايا ... ورآءَكُـــمُ أضـــلَّكُمُ الـــدليلُ
فقـــل لنـــويرةٍ وكليـــب مهلًـــا ... أقيمـــا إنَّ خزيكمـــا طويـــلُ

وقالت أم الأغرّ أيضًا:

يـبكين فـردًا بنـات الحـى مـن أسـدٍ ... قـد كـنَّ يُحمـين منـهُ دايـم الأبـدِ
دعن التجمل وارفعن الحجاب ضي ... على أبى النصر لا تبكى على أحدِ

وأما البرَّاق فإنهّ أطال المكث عند صريم وهو فى الإعزاز والإكرام لم يدر ماذا يجرى عليه وإلى ماذا يصير أمره إليه وكان لصريم زوجة من أشراف نساء العرب يقال لها الرقشاء فاتفق أنها دخلت على البرَّاق ذات ليلة فسمعته ينشد ويقول:

فمـــن لى مبلغًـــا ليلـــى ســـلامًا ... لخـــلٍّ ناصـــحٍ ضـــبٍّ عميـــدِ
ويعلمهـــا بمـــا لاقيـــت جهـــدًا ... مـــن التعـــذيب والأســـف الـــشديد
وإنـــــى لا أنـــــام ولا أُحيـــــيَّ ... وكيـــف ينـــام ذو نـــومٍ طريـــدِ

فأشفقت عليه ورثت لحاله ثم إنها حيتهُ بالسلام وجلست إلى جانبهِ وأخذت تتلطف بخاطره وتسليهِ بالكلام ثم قالت لهُ كن براحة بال من هذا القبيل فإنى مما بذل غاية جهدى إلى أن أقف لك على أخبار ليلى قال وكيف يمكنك ذلك قالت إن لى معرفة بامرأة برد بن طريح وهى التى توصلنى إليها فقال إن كنتِ فاعلةً ذلك فيكون لكِ على الفضل والمعروف وإن وصلت إليها أقريها سلامى وأخبريها بمكانى وقولى لها كيف يحصل وقوعك فى يده فلعلها تخبرك برأى حسن يكون فيه الفرج *

قال ولما كان الصباح مضت الرقشاءُ ودخلت على امرأة برد فسألتها عن ليلى فقالت يا أختاه وما تريدين منها قالت أريد زيارتها قالت إنها فى أقصى دار الملك وقد أقام لخدمتها جارتين وجعل على الباب حاجبًا لا يدع أسدًا يصل إليها إلَّا بازلها وأنى إذا أردت زيارتها أو مشاورتها فى شيء لا تكلمنى إلا من وراء الحجاب ولقد سألتها يومًا التقدم إلى دارنا فاعتذرت وامتنعت فإن أردت زيارتها من خلف الستر أنفذت معك من يوصلك إليها قالت نعم فوجهت معها جارية فوقفت على الحاجب فنادى بجارية ليلى وقال استأذنى مولاتك لهذه الامرأة قالت الجارية من تكونين قالت من عشيرتها فأخبرت تلك الجارية ليلى فقالت قديها وموضع النساء خلف الستر فتقدمت بها وحيتها بالسلام فسألتها عن حالها ومن تكون من نساء العرب ولم يكن من جواريها من تعرف العربية فأنشدت الرقشاءُ:

لـــكِ العـــزاءُ بغرســـان وذا خـــبري ... وعنـــدنا ســـيد الحـــيين مـــن مـــضرِ
قـــد روَّح الجنـــد عنـــهُ وهـــو منعكـــفٌ ... عليـــهِ يبكـــى لـــدى الظلمـــاءِ والـــسحرِ
لغربـــــةٍ وهمـــــومٍ لا تفارقـــــهُ ... ســـحَّ الجمـــوع مـــن الأجفـــانَ كـــالمطر

لا يستفيق من الأحزان سيدتي ولا يسير إلى بدوٍ ولا حضر

قال قلما سمعتها ليلى تزلزلت من مكانها وأيقنت بصدق الخبر وفرحت بالبراق واغتمَّت لغربتهِ وفرقة غرسان وأرادت تحقيق خبر البراق فقالت للمرأة صفيه لى أن كنتِ تعرفينهُ * قالت فيهِ وقار الكهل على صغر سنهِ وحلم الشيخ وأما صفة حسنهِ فإنهُ خفيف الجسم مستوى القامة عريض المنكبين غليظ الساعدين أخضر اللون صافيه مستدير الوجه قد تلألأ عارضاهُ على أول لحيتهِ أدعج العينين جعد الشعر فعرفت ليلى صفتهُ وقالت بماذا أرسلك وقد علم أنهُ لا سبيل إلى الوصول إلى قالت إنهُ متوقعٌ خلاصِك وقد جيت لأتوقف على حقيقة خبرك وكيف يكون التدبير فى ذلك قالت اقريه سلامى وقولى له يأتى معك فى ذى النساء لأنظره واسألهُ عن حالهِ وأعزيهِ بأخيه والرأى يكون بعد ذلك ثم أمرت لها بطعام فأكلت وشربت وتحدثت عندها ولما أرادت الانصراف أنشدتها قصيدة وأمرتها أن تنشد البرَّاق إياها وهى قولها:

قد كان بى ما كفى من حزن غرسانِ والآن قد زاد فى همى وأحزاني
ما حال برَّاق من بعدى ومعشرنا ووالدى وأعمامى وإخواني
قد حال دونى يا برَّاق مجتهدًا من النوايب جهدٌ ليس بالقاني
كيف الدخول وكيف الوصل هيهات ما خلت هذا وقت إمكان
لما ذكرت غريبًا زاد بى كمدي حتى هممت من البلوى بإعلان
تربَّع الشوق فى قلبى وذبت كما ذاب الرصاص إذا أُصلى بنيران
فلو ترانى وأشواقى تقلّبني عجبتَ برَّاقُ من صبرى وكتماني
لأدرَّ درُّ كليبٍ يوم راح ولا أبى لكيزٍ ولا خيلى وفرساني
عن ابن روحان راحت وائلٌ كثبًا عن حاملٍ كل أثقالٍ وأوزان
وقد تزاور عن علمٍ كليهمُ وقد كبا الزند من زيد بن روحان
وأسلموا المال والأهلين واغتنموا أرواحهم فوق قبٍّ شخص أعيان

حتـــى تلافـــاهم الـــبرَّاق ســـيدهم ... أخو السرايا وكشف القسطل الباني
يا عين فابكى وجودى بالدموع ولا ... تمـلّ يـا قلـب أن تبلـى بأشـجان
فـذكر بـرَّاق مـولى الحـى مـن أسـدٍ ... أنـى حيـوتى بـلا شـكٍ وإنـساني
فتـــى ربيعـــة طـــوَّفٌ أماكنهـــا ... وفـارس الخيـل فـى روع وميـدان

قال وإن الرقشاءَ لما وصلت إلى البرَّاق أنشدتهُ الأبيات فتاءَوَّه ساعةً ثم قال يا رقشاء ما أزورها فى ذى النساءِ ولابد أن يساعدنى الدعر فألقاها فى ذى الأبطل فبلغيها عنى وبلغينى عنها لعل الله يحدث بعد ذلك أمرًا وأنشد يقول:

اســأل فـؤادى عـن هـمٍّ وبلبـالِ ... ودمـع عينـى عـن سـجمٍ وتهطـالِ
متـــى أنـــال شـــفا دابـــى بالويـــةٍ ... معلومـــةٍ ورجـــالٍ غـــير أعـــزال
بهـا أروّى غليلـى عـن أخـى وبهـا ... أردُّ ليلـــى إلى الأهلـــين والمـــال
لعـل روحـان يـأتى فـى بنـى أسـدٍ ... كليـب غـابٍ إذا يعـدو بأشـبال
فـى فيلـقٍ كـسواد الليـل مـن مـضرٍ ... وحـى غـسان أهـل المنـصب العـالي
ويـــستفيق كليـــبٌ مـــع نويرتـــهِ ... وعـامر بـن دُؤَيـب وابـن صـنهال
قـومٌ مـساعير حـربٍ راكـبين وغـى ... رامـوا مـن الأمـر حقًـا كـل أهـوال

ثم إنهُ قصد بعد ذلك قبر أخيه وبكى ساعةً ثم أنشد وقال:

لـيس البكـاءُ الـذى نبكيـهِ بالمقـلِ ... لكنـــهُ بظبـــاءِ الهنـــد والأســـلِ
فذاك غرسان ما أرجوهُ إن ظفرت ... كفـى فـذلك عنـدى غايـة الأمـل
هل تسمعنَّ دعاءِى إن دعوت وهـل ... تـرى مقيمًـا كمغـرودٍ مـن الإبـل
أسايل الريح عن قومى إذا خفقت ... وعـن كليـب الـذى ولى ولم يـسل

ثم رجع إلى منزله فى دار صريم وكان صريم قد استأذن من البرَّاق وخرج فى أشغال لهُ وأمر زوجته الرقشا أن تزيد فى إكرام البرَّاق وتعاونه بكل ما تقدر عليه *

قال ثم إن الرقشاءَ تقدمت إلى البرَّاق وقالت لهُ الرأى عندى أن أذهب إلى ليلى وأشير عليها أن تستأذن من الملك فى الخروج إلى الصحرا لأجل النزهة فإذا أذن لها أخبرتك وجعلت لك وقتًا معلومًا ترصدها فيه فاستحسن البرَّاق رأيها ثم مضت إلى ليلى وبثت إليها ما فى نفسها وتعاهدنا على كتم سرهما وأرسلت ليلى تسأل الملك أن يأذن لها بالخروج إلى الصحرا ولجت فى السؤال حتى وافقها وضرب لذلك يومًا معلومًا فلما علمت ليلى أنهُ قد أمر لها بذلك أمرت الرقشا أن تخبر البرَّاق لأجل أن يكون على استعداد فسارت الرقشا وأخبرت البرَّاق ولما كان ذلك اليوم تجهز البرَّاق وليس لأمة حربه وركب جوادهُ ووقف فى ناحية من الطريق إلى أن أقبلت ليلى وكان فى صحبتها جماعة من جند الملك فتقدم حتى قارب ليلى وكانت راكبة على نجيب وفى صحبتها ثلاث جوار فقال لها حثى نجيبك فحثت نجيبها ومال بها إلى جانب فلحقهُ بعض الجند فسل حسامه وعطف عليهم وردَّ أولهم على آخرهم فرجعوا إلى المدينة وراح البرَّاق بليلى منصورًا وقد طاب لهُ الوقت. وذهب عنه المقت وحصل على المطلوب ونال ما كان يتمناه من لقاء المحبوب وما زال يقطع القفار ويواصل سير الليل بسير النهار حتى أشرف على الديار فركبت للقايه السادات والأبطال واستقبلوه أحسن استقبال وهنأُوه بسلامة عودته إلى الأوطان وعزوه بأخيه غرسان قال وشاع الخبر فى قبائل نزار بقدوم البرَّاق فقامت البشاير فى القبايل والعشاير حتى لم يبق فى بلاد العرب أمير ولا سيد خطير ولا من بشار إليه إلاَّ وقصد البرَّاق وأقبل عليه فتلقاهم البرَّاق بالإكرام والترحيب وقابلهم مقابلة الخليل الحبيب ونحر لهم الجزور والأغنام مدة سبعة أيام وهو ينصب الموايد ويقدم الطعام ثم زوجوا البرَّاق بلبلى بدر التمام وكانت عذراء لم يظفر بها أحد من العرب والأعجام واتفق لهُ فى ذلك العرس من الأبهة والاحترام شيء لم حصل لأحد مثله من الملوك العظام ونثر عليه السادات والكبراء وفرسان القبايل والأمراء الفضة والذهب والؤلؤ النفيس المنتخب ثم انصرفت بعد ذلك السادات والأبطال طالبة المنازل والأطلال وأقام البرَّاق فى أرغد عيش وأحسن حال وقد انتشرت هيبته فى الآفاق وشاع ذكره فى اليمن والحجاز وبلاد نجد والعراق وصفى لهُ الوقت وراق وهذا ما انتهى ألينا من أخبار ليلى ووقايع البرَّاق.